سلام الذئاب والحملان

د . إيهاب سلام

الطبعة الأولى
١٩٩٨م

الفصل الأول

اعتقال السفير الإسرائيلي

انتهى السفير الإسرائيلي من الإطلاع على كوم البريد ، المرصوص أمامه في نظام يدل على صاحبه ، وأعاد استطلاع تأشيراته ، فقد عرف بالدقة ولايخرج عن دائرتها ، يتربع على عرشها منذ فترة .نظر لحظات إلى الصحف الإسرائيلية ، وتمعن في خبر من الأخبار : ليفي وزير الخارجية الجديد في وزارة ناتنياهو يصر على ضم شارون ، ألم ينته عصر ذلك السمين بعد ؟ . . لكن يبدو أن ذلك سمت الإسرائيلي في القرن العشرين . . تخفت عنه الأضواء فجأة ثم اتصلت عليه مرة أخرى . والمجازر مستمرة باليد اليمنى والدعوة إلى السلام باللسان غير الفصيح . ضم الجرائد الفرنسية إلى الجرائد العبرية ، وطلب سائقه هاتفياً أن يستعد . سائق جديد لكنه ماهر ومنتظم في المواعيد ، فرنسي ويتكلم الفرنسية بطلاقة .

زفر طارداً هماً جاثماً على صدره وهو يدخل السيارة . وقفل السائق الباب بعد دخوله بإجلال واحترام . تذكر زوجه عاشقة النوم حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، وقبل أن يصل تكون قد اندمجت مع مقطوعة موسيقية راقصة . هي لاهية لا تستقبله بالأحضان ، تزوجها صغيرة السن وهو يعرف أنها قد تجهده بالسفر والرحلات والرقص ذلك الذي تعلمته في أمريكا ، لكم تمنى أن ينفصل عنها لكن من تتزوجه في هذه السن . إنه يرضى بما قسم له الرب . من حين لآخر يلتقط منها قبلة ، أو ابتسامة أو صاعاً من عسل وقلما تشغل بالها به . كم تمنى أن يوفد في مأمورية تفصله عنها مدداً طويل.

انطلق السائق المميز . لقد اشتغل في السفارة حتى أعوزت السفير الحاجة إلى سائق فالتقطه ومنذ ذلك اليوم ارتاح إليه ولم يفرط فيه . نشط صبور يفعل الأمر قبل أن يصدره . سأل السائق : إلى أين يا صاحب السعادة ؟ . . قال السفير : إلى البيت . يسكن الضواحي بعيداً عن زحام باريس . زحام السيارات والناس . أما في الضواحي فإن الزحام يخفت والحركة تقل . يبدو مقياس حرارة الزحام في تلك الأنحاء منخفضاً لدرجة كبيرة . .

تأمل السفير الطريق عبر الزجاج الأمامي وبغتة وجد أربعة رجال يعترضون السيارة . يركبون دراجتين ناريتين . وخشى السائق أن يصدمهم فيقتلوا فتوقف في الحال بأمر منهم . كانوا ملثمين . ترجل اثنان منهم وفتح أحدهما الباب الأمامي وأمر السائق النزول والآخر فتح باب السفير واندس بجانبه . الآخران يقفان على الدراجتين شاهرين مسدسيهما لأى حركة غدر ، وأمر السائق أن يغادر السيارة وأمسك القيادة الملثم الأول وأشهر مسدسه في وجه السفير ، وقام الملثم الثاني بتغمية السفير وربط فمه برباط لاصق . وقيد يديه بالأصفاد . كان السفير مذهولاً ولم يحاول أن يتمرد . تعلم من الحرب وهو جنرال سابق أن يستسلم للأقوى حفاظاً على حياته . وهو في هذه الحالة لا حول له ولا قوة .لقد رفض منذ زمن أن يركب معه حارسه الخاص رغم اعتراض القنصل نائبه . كان لا يجد غضاضة في أن تحمله السيارة دون حراسة . ففي فرنسا لن يفكر أحد في إيذائه . فالفلسطينيون نادرون واللبنانيون أهل تجارة لا يفكرون في العنف . والسوريون لا يفترقون عنهم والمصريون أقامت إسرائيل مع بلادهم علاقات دبلوماسية تحول دون أن يقترفوا جريمة مثل هذه الجريمة التي ترتكب الآن . وقف السائق حائراً في الطريق إلى الضاحية الخالي من السيارات . ورآه السفير ذاهلاً لا يقوى على عمل شيء، والغمامة توضع على عينيه فتحجب عنه الرؤية . وانطلقت السيارة إلى مكان غير معلوم كما انطلقت الدراجتان الناريتان في أثرها يقودهما الملثمان المشاركان الآخران . لم يحاول السفير أن يسأل عن الوجهة لأنه يعرف أنه لن يجاب ، أصابته المفاجأة بالذهول . وحال الرباط اللاصق دون أن يصرخ أو يستنجد أو يطلب الغوث . وحالت الأصفاد دون أن يقاوم .

دخلت السيارة بعد فترة إلى مكان هادئ. لم يسمع فيه السفير زقزقة العصافير ، حيث حال زجاج السيارة دون ذلك . ثم اختفت السيارة كما حاول أن يحدس في قبو ، لعله مرآب . ووجد نفسه يخرج في ظلام دامس قبل أن ينزع الرباط عن عينيه وشعر بإضاءة خافتة في المرآب . يمشي قليلاً ثم ينزل درجات من السلم ويخلع عنه الملثم رباط الفم والأصفاد ويحركه والمسدس في ظهره ،

ويرى قاعاً عميقاً وسلالم قد تصل إلى خمسين درجة ، ثم إذا به يدخل في حجرة مؤثثة . تبدو كأنها معدة لاعتقال طويل الأمد . هكذا تمنيت أن تنفصل عن الزوجة اللعوب واستجاب الرب لطلبك . تراها سوف تهتم ! ؟ . .

• • •

عاد سائق سيارة السفير إلى مبنى السفارة ، وكان قد استقل سيارة أجرة جاءت بالصدفة في الطريق الهادئ الخالي من السابلة والسيارات، والتقى على الفور بالقنصل وقال له :

– هاجمنا ملثمون واختطفوا سعادة السفير .

–كيف حدث ذلك ؟

–اعترضوا السيارة بدراجتين ناريتين . خفت أن أقتلهم أويا ليتني قتلتهما ، وإذا بهما يشهرون مسدساتهم ، ويأمروني بمغادرة السيارة. جئت على الفور لأبلغكم .

اتصل القنصل على الفور باروشليم . وطلب أن يتصل بوزير الخارجية . كلم مدير مكتبه . روى له قصة السائق ، وسأل : ماذا أفعل ؟ . . هل أبلغ الشرطة ؟ . . استمر الخط متصلاً ثم أجاب مدير مكتب الوزير : لا تبلغ الشرطة الآن انتظر حتى نعرف مطالب الخاطفين . وما كاد ينتهي حتى رن جرس الهاتف وسمع القنصل من يقول له : اسمع . لقد تم اعتقال سفيركم . . أتفهم . . سفيركم المبجل ولن يفرج عنه إلا إذا تم الإفراج عن التاجر جلال إبراهيم محمود . لقد تم اعتقال ذلك التاجر عنوة أثناء غزو صيدا بلبنان من البحر وتم اعتقاله دون وجه حق . وإذا لم يفرج عنه ويرحل خارج إسرائيل إلى برلين بألمانيا فسوف يتم اعتقال آخر من السفارة وسوف يتم قتل السفير ، وإرسال جثته إليكم وإذا لم يتم الإفراج عن ذلك التاجر فسوف يتم اعتقال ثالث . وقتل الثاني وتسليم جثته إليكم . وهكذا .

قال القنصل : من المتكلم ؟

قال المتكلم : يا لك من ساذج . اتصل بعاصمتك على الفور وقل لها الخبر . ثم انتظر مني مكالمة لأعرف منها ما هي فاعلة . وفي الحال طلب القنصل وزارة الخارجية الإسرائيلية .

• • •

أمر وزير الخارجية باستطلاع حالة المعتقل جلال إبراهيم محمود في سجون إسرائيل ، ووصل التقرير على وجه السرعة . لقد نما إلى علم المخابرات الإسرائيلية معلومات عن جلال إبراهيم محمود أنه تاجر من تجار السلاح يعيش في مقر غير معلوم خارج لبنان ويعقد الصفقات مع الفدائيين في صيدا ، ويبدو أنه مزدوج الجنسية له جنسية دولة وجنسيته كلبناني في وقت واحد كأنه يلعب على حبلين في نفس الزمن ، يسافر إلى الدولة الأخرى ليتفق على توريد السلاح ويعود إلى صيدا ليسلمه ويقبض الثمن . واستشف من لهجته العربية بعد اعتقاله أنه فلسطيني الأصل . وقد صدر أمر اعتقاله حتى يتوقف عن توصيل السلاح إلى المليشيات العربية الفدائية العاملة ضد إسرائيل . لم يكشف عن البلدة الأخرى التي ينتمي إليها وأصر على أنه لبناني . وصدرت الأوامر باعتقاله أثناء غارة بحرية على صيدا في جنوب لبنان . عرف أنه موجود أثناء الغزوة البربرية وتمت مداهمة مقره وحاولت المخابرات أن تعرف مقره الآخر لكنها فشلت وأصر هو الآخر على أنه من المقيمين في صيدا إقامة دائمة وأنه تاجر من تجار الأغذية المعلبة يستوردها من بيروت ويوزعها على تجار صيدا لهذا فهو كثير الأسفار . ولم يعترف أنه تاجر سلاح والتزم الصمت بعد ذلك .

وطلب وزير الخارجية الإفراج عن جلال إبراهيم محمود وتسفيره إلى برلين بألمانيا حتى لا يقتل السفير الإسرائيلي في فرنسا ومقابل أن يفرج المعتقلون عن السفير . وأرسل طلباً بذلك إلى وزير الداخلية لاتخاذ اللازم . أبدى وزير الداخلية امتعاضه ، فليس من عادة إسرائيل أن ترضخ لأوامر الفدائيين لكن هذه المقايضة لن تكون باهظة الثمن لأنها مقابل إسرائيلي عال المرتبة .

الفصل الثاني
حدث في فلسطين

جلس بسام يتأمل عمله الجديد في معمله ، وهو يدخن سيجارة . يتمنى أن يقلع عن هذه العادة ، لكنه لا يستطيع . كانت إرادته حادة في كل الأعمال فيما عدا هذا العمل الضار . لما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية توقع معاهدة أوسلو مع إسرائيل ، قرر أن يمارس هوايته الجديدة الرسم بالحاسب الآلي . وبه يعرض أحداث فلسطين الهامة من خلال رسم كاريكاتيري يصنعه بيده على الشاشة يظهر الأحداث الهامة . وسمى البرنامج حدث في فلسطين . ينوي أن يهبه إلى التلفاز الفلسطيني عند إنشائه في دولة فلسطين المنتظر إنشاؤها .

كان قد انتهى من العمل وطفق يستعرضه من خلال شريط للفيديو خلال تلفاز وبجانبه جلست صديقته جانيت .

ظهر على الشاشة العنوان : حدث في فلسطين .

ثم عنوان آخر : مذبحة دير ياسين .

٩ إبريل ١٩٤٧ .حدثت أكبر الحوادث عنفاً ودموية . مذبحة دير ياسين . وفيها تنصلت السلطات اليهودية من مسئوليتها عن العملية العسكرية . فقد تولت عصابتا الأرجوان وشتيرن احتلال قرية دير ياسين من أجل السيطرة على طريق القدس . وهى قرية تبعد عن القدس بثلاثة أميال .

بدأ هجوم شتيرن والأرجوان يوم الجمعة يوم العطلة . وحدث قتال عنيف انتهى بمقتل ٢٥٤ عربياً بينهم نساء وأطفال ، وتم أسر ١٥٠ عربياً ودفعوا إلى العرض في الشوارع . اعتبر الكتاب الصهيونيون ذلك الحدث مهيناً ووصف قائد الهاجانا ذلك الحدث بالمذبحة . ولم تكتف الوكالة اليهودية بإنكار مسئوليتها عن المذبحة ، بل وجهت اعتذاراً بذلك إلى الملك عبد الله ملك الأردن .

كان الراوي يروي الأحداث والرسم الكاريكاتيري يبين العصابات اليهودية وهي تغزو القرية . وتقتل الأطفال والنساء والرجال .وتأسر العرب وتدفعهم إلى الشاحنات حتى تسير ببطء في ميدان الملك جورج . والفزع مرسوم على وجوه الأطفال والنساء والرجال ثابتو الجأش .

افتر ثغر بسام عن ابتسامة . لقد أوضح المذبحة بحيث تسيل دموع المشاهدين . وتزفر الآهات وينوح البعض . والتفت إلى صديقته الفرنسية الجالسة بالقرب منه تشاهد العمل التلفازي الجديد .

قالت جانيت : اعتقد أنك من الممكن أن تصل إلى مستوى أفلام والت ديزني بمرور الوقت .

قال بسام : إنها مجرد هواية أشغل بها وقت فراغي الكبير . لا أبغي الاحتراف .

قالت : اعتقد أنك ستعرض فقط للمخازي التي ارتكبتها إسرائيل في حق العرب . ولن تظهر ما ارتكبه العرب في حق إسرائيل .

نهض يبحث عن شريط آخر ، وهو يقول : من قال لك ذلك . أنا أكتب التاريخ بحياد . وأبدؤه من مذبحة دير ياسين . انظري هذا الشريط . إنه عن مذبحة ارتكبها العرب رداً على مذبحة دير ياسين .

وأخرج الشريط السابق ، ووضع شريطاً آخر . وبدأت العناوين تظهر :

حدث في فلسطين .

مذبحة جبل المكبر .

كمن العرب لقافلة يهودية متجهة إلى مستشفى حداثا في جبل المكبر . أطلقوا الرصاص على ٧٧ شخصاً . وانتقد اليهود السلطات البريطانية القائمة بالانتداب على فلسطين في ذلك الوقت لعدم تدخلها إلا بعد الانتهاء من الهجوم . كانت القافلة التي وجه إليها الرصاص تحمل أطباء وممرضين . وكانت تصحبها مدرعات وسيارات مصفحة تحمل نجمة داوود الحمراء . وعرض الفيلم للمذبحة بالرسم الكاريكاتيري التشخيصي وأبرز نجمة داود على سيارة المستشفى ، والأطباء والممرضون اليهود وهم يقتلون . والسيارات المصفحة البريطانية تبتعد عن مسرح العمليات .

قالت جانيت : بهذا الفيلم أثبت أنك محايد .

وكان عرض الفيلم باللغة العربية ، وفي أسفل الشريط ترجمة باللغة الفرنسية . لم تشعر جانيت بالملل وكانت مشدوهة ، حتى أنها قالت :

-لم لا تصنع فيلماً لأحداث قانا الأخيرة في لبنان .
قال : أنا أعمل كثيراً . وقد أعددت ذلك الفيلم بالفعل .
سألت : هل أراه ؟
قال : أخشى أن يصيبك الذعر .

* * *

خرجا من معمل بسام ، واتجها إلى حوض السباحة القائم في حديقة القصر . وكانت هناك أم بسام جالسة تحتسي فنجاناً من الشاي بالقرب من حمام السباحة تحت مظلة تحميها من الشمس ، وحول الحمام حديقة رائعة مليئة بأشجار مثمرة . والهواء عليل والنسائم تخوض المكان ملاطفة الوجوه رغم أن الوقت كان صيفاً .

قالت بعد أن صافحت جانيت وقبلتها في خديها :

– أبوك تأخر يا بسام ؟

قال مبتسماً :

– الغائب حجته معه يا أمي .

خلع بسام ثيابه وظهر أنه يرتدي لباس البحر وقفز إلى الحوض بقوة ، وطفق يسبح ذهاباً وإياباً حتى يسخن جسمه كانت الحرارة في الشمس قد ارتفعت فأغرق نفسه في برودة الماء . بينما جانيت تتأمله والمرأة تقول :

– ليس من عادة والد بسام أن يغيب هكذا .

كانت لغتها الفرنسية سهلة ومفهومة فعمرها كله قضته في فرنسا رغم أصولها اللبنانية .وردت عليها جانيت بنفس اللغة فهي لا تعرف شيئاً في اللغة العربية :

– وأين تريه يذهب ؟

– إنه عادة يذهب إلى لبنان . لديه مصالح هناك . لكن في هذه المرة تأخر كثيراً .

برز الأخ الكبير إبراهيم ، وصافح أمه وقبلها في خدها . وعادت تسأله نفس السؤال ، لأنها تعرف أنه يعمل مع أبيه ويعرف كل تحركاته . قال:

- يا أمي لا تخافي . . بإذن الله سوف يعود .
ثم صافح جانيت وقال لها :
- هل أنت في إجازة ؟
- نعم
ثم جاءت رشا ورانيا الأختان الصغيرتان إحداهما في الثالثة والعشرين والأخرى لم تتجاوز العشرين عاماً وانضمتا إلى مائدة الشاي . والأم تصب لهما الشاي في فنجانين مرسوم عليهما خطوط ذهبية .
همست رشا باللغة العربية لرانيا قائلة :
- أتعتقدين أن هذه المرأة سوف تدخل العائلة ؟
قالت رانيا وهى تهمس :
- أخوك بسام مغرم بها .
وكان بسام لا يزال يسبح في حوض السباحة . وإبراهيم يتأمل الحديقة الغناء ويملأ أنفاسه من هوائها العليل .
ونهضت رشا قائلة :
- سوف أذهب إلى الجامعة . . لدى محاضرات أستأذن يا أمي .

الفصل الثالث

الغيرة . . الغيرة

تركت رشا الحديقة ، واتجهت إلى المرآب . وقامت بتسخين موتور سيارتها . ثم اندفعت إلى باريس القريبة من الضاحية التي تسكنها . هناك التحقت بالدراسات العليا ، بعد أن حازت على البكالوريوس . تدرس الهندسة الإلكترونية ، إنها مثل أخيها بسام تهوى الإلكترونيات ولكنها ليست مبدعة مثله . كانت في البداية تذهب وتجئ دون حماس يذكر . أما اليوم فالوضع مختلف ، فقد التقت بحبيب عمرها - سعيد - فبعث الحماس في صدرها ، وجعلها تشتعل شوقاً لرؤيته والانتظام في الدراسة . لم تركن مثل أختها رانيا إلى البطالة ، والزحف البطيء في الدراسة ، إنما استمرت تدرس بهمة .ولم تعلن نبأ حبها

الوليد ، حتى لا تعمل رانيا على اختطاف حبيبها منها . كانت - كما سمتها - متخصصة في الاستيلاء على ما يخصها ، كان لديها ردار ينبئها بما تملكه فتعمل على اقتناصه . غريبة .. إنها غير محرومة من شيء . أب ثري . وأم حنونة وغنية. وأخوة متحابون ، ورغم ذلك تطلع إلى ما في يد غيرها أو ما يخص الآخرين خاصة أختها .

تعرفت إلى سعيد عند أول يوم خطت فيه قدماها الجامعة وحدثت نفسها أن هذا هو حبيب العمر . كان حائراً يبحث عن المدرج . لغته الفرنسية لا تسعفه ، ولو أنه الآن يتكلم بطلاقة . وحاول أن يسألها أين المدرج فلما تذكر أين نسى المدرج . ولما تذكر المدرج نسى أين ، فسألته : ما هي اللغة التي تجيدها ؟ .. قال : اللغة العربية . سألته بهذه اللغة : من أين أنت ؟ قال : من مصر . قالت: أنا لبنانية فرنسية ، أعرف اللغة العربية بلهجة أهل الشام إذ أننا نتداولها في البيت . قال ضاحكاً أهل الشام هكذا . ألم تتحد سوريا ومصر في الجمهورية العربية المتحدة . قالت معترضة : لكن لبنان لم يتحد . هز رأسه موافقاً وقال في أسف : بل تفرقت أو تمزقت .

ومنذ ذلك اليوم وهما متلازمان . علمته الفرنسية الدارجة بينما كان يدرس الفرنسية الأصيلة . وأخذته معها في سيارتها إلى أنحاء باريس . ووجدته فقيراً فلمحت إليه أن لا يهتم فهي ابنة مليونير .. أخطأت فعلاً أن قالت له ذلك . تراجعت وقالت : لبناني غني فقط . كانت تريد أن يحبها لشخصها دون طمع في مال أبيها. لكن مهما كان الطمع فقد أحبته . وهامت به ذلك المصري . إنها تذهب الآن إلى الكلية بقلب مفتوح . وتستمر تثرثر مع سعيد ولا يتطرق الملل إلى قلبها. إنها لو طالت أن تأخذه معها إلى قصر والدها لما ترددت لكنها تخشى أن تقفز الفوارق فتأتي في المقدمة وينتكس الحب لا بد من التمهل في هذه الحالات . وفيما بعد اكتشفت أن سعيداً صعيدي من المنيا والصعيدي في أفلام المصريين متحجر العقلية ، قلبه ملئ بالغيرة على أهله . لا يحب لحبيبته أن تختلط . أن تتكلم مع أجنبي عنها . وإلا تشتعل الغيرة وتتقد جذوتها وتنفث دخانها وتبدأ سمومها في الانتشار في كل الجسد والنفس وما حولهما . طلب

منها يوماً ألا تتكلم مع أحد فعاتبته على ذلك المخ المقفول . ذكرته أنه في باريس وليس في قريته .

وفي يوم ، وجدت وجهه متجهماً ، تبدو سحنته السمراء مربدة. وشعره الكث غير مصفف ، وكأنه يعاني من السهد . سألته : ما بك؟ .. لم يجب . انتهت المحاضرة ، وترك المدرج كسيفاً . لحقت به وسألته : ماذا حدث ؟ ..قال : أنا آسف لا يمكن أن تستمر علاقتنا معاً . سألت : وما السبب ؟ .. قال : لا استطيع أن أبوح به . قالت : لا .. يجب أن تصارحني . خجل وتردد من أن يتكلم بداية ثم اندفع قائلاً دون ترو : لقد ضاجعت ذلك اللبناني المدعو يوسف زميلنا في الدبلوم . أمسكت به وقالت وهي تهزه : ماذا .. ماذا تقول . أنت تهذي . أنا أضاجع هذه الحشرة .. قال : هكذا قال لي . قالت : إذن واجهني به . قال : لا داعي لذلك . لا داعي للفضائح . قالت : إنني آسفة أن يسهل خداعك بهذه الدرجة وتصدق كل كلمة تقال لك . إذا قال لك أحدهم شيئاً تصدقه على الفور . أهذا عقل رجل متحضر ؟ !

استدارت ذاهبة عنه . يسقط الحب . يسقط الغرام الملتهب . إن شرفها أهم لديها من الهوى . فليذهب إلى الجحيم . إن امرأة عاقلة مثلي لا يجوز أن تتجرف إلى المرارة. كيف يصدق هذا اليوسف ويكذبني كأنه يرفض ما أقول ويعتد بما يقول ! ..هل لأنها متحررة قليلاً يظن بها الظنون . وبمجرد أن تلفظ كلمات سخيفة يوقن أنها الحقيقة ولو كانت خالية من البرهان . يا للأسف على هذه العقلية المتحجرة . غيرة عمياء دون عقل .

عادت إلى القصر مهمومة في ذلك اليوم . كيف يجروء ذلك الجبان أن يقذفها بهذه القذيفة ؟ .. إنها تكره اليوم الذي أحبته فيه . لقد مضى على علاقتهما أكثر من سنتين ، ألم يستشف فيهما عزة نفسها وكرامتها ؟ .. إنها حتى لم تسلم له شفتيها ، ولم تحاول أن تضع يده في يدها . كان الحب طاهراً لم تحاول أن تدنسه بالجنس . لكن يبدو أنه ظن أنها تتأبى عليه هو الوحيد حتى توقعه في حبائلها ولغرض في نفسها وهو أن تفوز به . ظن السافل أنها عربيدة تحاول أن تفوز برجل شريف وتخفي وراء اسمه عارها .

رن جرس الهاتف . وأمها جالسة تقرأ في صحيفة الصباح . ورانيا تلمع أظافرها توطئة لصبغها باللون الوردي . بيضاء تريد أن تكون في لون الورد . رفعت الهاتف فسمعته يقول لها : رشا.قالت:نعم .. من ؟ .. قال: أنا آسف .. آسف جداً.وأعتذر . أريد أن أراك لأشرح لك . وضعت السماعة وهى تقول باللغة الفرنسية : النمرة غلط . وكان يحدثها باللغة العربية .

كانت غاضبة . غير أن الغضب بدأ يلفظ أنفاسه بمجرد أن ألتقي اللقاء الثاني . أعتذر وحقر نفسه أن صدق ذلك المأفون . وقالت له إنها لم تكن لها علاقة بأحد غيره . علاقات الحب لم تعرفها . أما علاقات الصداقة فهي كثيرة بحكم دراساتها. . وبحكم عملها . لكن كيف يظن أن هناك علاقة لها بهذا الكئيب المسمى يوسف . إنه لا شكل له ولا منظر حتى تعجب به امرأة ، فكيف هي الغنية المتعلمة الراقية تعجب به ألم تجد في الدنيا غيره ؟ ؟ ..

في ذلك اليوم سألها سعيد :

– ألم يحن الوقت لأن نتزوج ؟ ..

قالت : أنت أجنبي كيف أتزوجك ؟

– وهل الأجانب لا يتزوجون .

– أقصد أنك لن تبقي في فرنسا . وعائلتي استوطنت فرنسا ، ولن تعود إلى لبنان . فهل تبقى هنا بعد الزواج أم نسافر معاً إلى مصر ؟

– لا أهمية للأمر . إن الوضع يقتضي أن أعود إلى مصر وألبث بها هناك زهاء أربع سنوات لأني أعمل في الجامعة . ثم بعد ذلك أكون حراً في أن أبقى في مصر أو نأتي لنعيش في فرنسا بجانب أهلك إلا إذا راق لك الحال في مصر .

– إذا كان الأمر كذلك فأنا موافقة .

– لكن هناك عقبة.

– ما هي ؟

– الفارق الكبير بيني وبينك . فما أنا إلا مجرد معيد سيرقى إلى مدرس في كليته . وأنت نبت رجل غني . الشبكة والمهر أمران لا طاقة لي عليهما .

- لا تفسد العلاقات بالأمور المالية . أنا أيضاً لا احتكم على بنس واحد أو فرنك مدخر ولا أعتمد على أموال أبي ، لذلك تجدني أعمل، فأنا أرفض أن أتقاضى مصروفاً من أبي .

لا يجوز أن أبلغه أن لي راتباً شهرياً يزيد على مرتب رئيس الجمهورية .. لا يجوز حتى لا يطمع في .

- لكن مرتب البعثة لن يكفينا.

- يمكنك أن تعمل عملاً إضافياً .

- لنبحث إذاً عن عمل معاً .

رغم صفاء النفس لكن الغيرة المرض ظلت تلازمه . كانت تأول له الأحداث وتفسرها تفسيراً خاطئاً . اكتشفت أنه لا يريدها أن تنظر إلا إليه . ولا تتكلم إلا معه . ولا تصاحب رجلاً ولو عرضاً بل وصلت الغيرة أن دفعته أن يرفض بعض أصحابها ، كان يريدها خالصة له يحتكرها لنفسه أو بالأحرى يتملكها . كانت تتغاضى عن أفعاله ، لكنها ظلت الرغبة في الانفصال مستترة . كان الحب يلجمها ويسوقها كفرس أهوج يريد صاحبه أن ينضبط . وانضبط الفرس لكنه ظل يعاني من لكزات صاحبه .

وسألها : متى يمكن أن أتقدم لوالدك ؟

قالت : انتظر .. إنه رجل أعمال . وسفراته كثيرة . لقد غاب هذه المرة أكثر من اللازم .

الفصل الرابع
التمني والواقع

فتح عليه الباب ، فوجده مستلقياً على الفراش ، ففزع حينما رآه . ثم استكن . وسأل :

- إيلام أبقى هنا ؟ ..

قال، ووجهه الملثم لا يبين ملامحه :

- حتى يتم الإفراج عن رهينة في السجون الإسرائيلية .

– وهل اتصلت بالسفارة
–نعم . اتصلنا . وقد أرسلت السفارة إشارة إلى وزارة الخارجية بذلك . وهذه الوزارة بصدد النظر . هل تريد شيئاً ؟ ..
أعرض عنه وهو يقول : لا شئ.
– هل الطعام جيد ؟ ..
هز رأسه بامتعاض وقال : نعم .. جيد . قال الملثم : أتحب أن تعرف أخبار بلدك .
لم يتفوه بكلمة ، فقال الملثم :
– أنا لدي كثير من الأخبار . هل أقرأها عليك .وأخرج من جيبه ورقة ثم قرأ منها : قال ايتمار روبينوفتش السفير الإسرائيلي لدى واشنطن إن إدارة كلينتون تعاني من الشعور بالذنب إزاء نيتانياهو بعد ما دعمت علناً منافسه شيمون بيريز في الانتخابات التي أجريت مؤخراً . في الوقت نفسه قلل مارتن انديك سفير الولايات المتحدة الأمريكية لدى تل أبيب من أهمية الخلافات بين الإدارة الأمريكية ونتانياهو بشأن عملية السلام .
ثم ضحك الملثم وهو يقول :
– أكدت فتاة إسرائيلية عملت لمدة أسبوع كمربية أطفال لدى عائلة رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو أن فترة عملها كانت أشبه بالكابوس . وصرحت صحيفة يديعوت احرونوت أن زوجة بنيامين عاملتها بفظاظة وكانت تصرخ طوال الوقت ولم تشعر ابداً بالرضا .وكانت فتاة أخرى تدعى تانيا شو قد صرحت لصحيفة معاريف بأنها تعرضت لسوء معاملة دون إنذار مسبق على يد زوجة نتانياهو .
ثم قال الملثم : في الصحف العربية هناك إشارة تقول : إن تاريخ العلاقات الإسرائيلية هو تاريخ المماطلة الإسرائيلية . لقد كانت إسرائيل على الدوام قادرة على كسر سلسلة الأحداث كلما اقتربت من نهايتها الطبيعية والعودة إلى بدايتها والمطالبة باللعب من جديد .
كف عن الكلام ثم قال :

- ليتني طلبت إطلاق سراح آلاف من السجناء في سجونكم تعويضاً مـع ذلك الرجل الذي اعتقلتموه ظلماً ولكن هل كانوا سيفتدونك لو طلبت ذلك ؟

هز رأسه رافضاً. ووضع يديه على وجهه وقال وهو يمسحه : لا أدري .

انسحب الملثم حاملاً صينية الطعام . ولم يجرؤ السفير على مداهمته لعله ينقذ نفسه من هذا السجن ، كان يدرك أن سنه وهو يدنـو مـن السـابعة والخمسـين لا تمكنه من العراك ومقاومة رجل يبدو في الثلاثين من العمر أو أقل أو أكثر قليلاً . . كيف يحـارب الخريـف الربيـع ويـأمل أن ينتصـر عليـه ؟ .. كيـف يتسـنى للضعف أن يهزم القوة ؟ ..

لما انصرف الملثم راح السفير يقارن بين ما كان يتمناه بأن ينعزل عن زوجـه الصغيرة اللعوب ، والواقع الذي يعيش فيه . كان يتمنى ما يغاير الواقع . والآن يتمنى أن يعود الواقع بمرارته . ما خفي أكثر مرارة منه .. هذا هو الإنسـان لا يرضى بالواقع ، وإذا صادفه ما يرضى عنه أو ما يتمناه يرفضه . لكن لم أكن أروم أن أعتقل ، كنت أتمنى أن أبتعد مع الاحتفاظ بحريتي . كم بيـن السجن والتحرر من المنغصات .

صعد الملثم السلم ذا الخمسين درجـة . ودخل مـن بـاب صغير . واتجـه إلـى الهاتف . وطلب رقم القنصل الإسرائيلي وسأله :

- هل اتصلت باورشاليم يا سيد ؟ ..

قال القنصل :

- من أنت ؟ ..

- الا تعرفني ؟ .. أنا خاطف سفيركم .

-آه .. آه .. نعم . اتصلنا . وجاري الإفراج عن ذلك المدعو .

(وانتظر طويلاً ثم عاد يقول) .. جلال إبراهيم محمود . ألا تخشى أن أعـرف مكانك ويتم القبض عليك وعلى عصابتك من خلال اتصالك الهاتفي ؟ ..

- يا سيدي القنصل .. لو كنت أعرف أنك أبلغت الشرطة لما تهاتفت معك ، ولكنـت أرسلت لـك جثـة السـفير .. وتسلمتها بنفسـك . تـأكد أنني جـاد . وإذا

خذلتني فقد تكون جثتك هي التالية . . أنت الآخر . متى أتحدث إليك مرة أخرى ؟ ..

– أمهلني يومين . وسوف نعلم فأخبرك .

المأفون لا يدري أن لي عيوناً في السفارة . وأعرف ما إذا كان قد اتصل بالشرطة أم لم يتصل . وهذا الأبله لو كنت أعرف أنه أجرى الاتصال ووافق على مراقبة الاتصالات هل كنت أكلمه من ذلك الهاتف . يا له من أبله .

• • •

مال سائق سيارة السفير المخطوف على عامل هاتف السفارة وهو يقول :

– ألم يأمرك القنصل بإعداد السيارة ؟ . .

قال العامل : حتى الآن . . لا

ازدرد رشفة من الشاي الساخن في يده وهو يقول :

– عمل السائق غريب . لا عمل لساعات ثم عمل منهك في الشوارع المزدحمة ساعة واحدة .

قال عامل الهاتف :

– أما عملي أنا فمتواصل . ليس فيه ساعة راحة ، كل دقيقة مكالمة وكل ثانية اتصال .

الفصل الخامس

المدللة

أنجبت دينا كلاً من إبراهيم وبسام ورشا في وقت مبكر من زواجها، ثم توقفت عدة سنوات وحملت في رانيا . وقررت أن تهبها كل حنانها . كان الأولاد الثلاثة قد التحقوا بالمدارس واصبح لقاؤهم اليومي قليلاً بسبب انهماكهم في المذاكرة . وبقيت رانيا في القصر لصغر سنها ، ورافقت أمها في تجوالها .. في ردهات القصر .. في الحديقة .. الملحقة به .. في زياراتها المتعددة

للبنانيات المغتربات ، وقد كثر عددهن بعد الحرب الطائفية في لبنان ، فقد هاجرن إلى فرنسا هرباً من الوغى ووطيسه المستعر . ولم يكن فقيرات إنما كن ثريات ، فكان مستواهن الاجتماعي مقارباً لمستوى دينا. وأغدقن هن الأخريات على رانيا حنانهن وأغرقوها بالمداعبات والقبلات ، لذلك نشأت رانيا مدللة .. تحب أن يكون لها كل شئ خاصة ما كان في يد غيرها ، ما دام استقر هواها على الشيء .

دخلت على أخيها بسام في معمله الملحق بالقصر . وهو يعد رسومه المتحركة عن القضية الفلسطينية أو تاريخ فلسطين بالأحرى. وسألته : إلى أى سنة وصلت ؟ ..

قال: إلى سنين قريبة .

شدت شريطاً ووضعته في الفيديو ، وطفقت تشاهده . تتمنى أن تكون مثل بسام ، مخرجة للصور المتحركة لكنها لا تستطيع . يتعذر عليها الابتكار ويتمنع الإبداع .

قرأت على الشاشة الصغيرة .

١٨ إبريل ١٩٤٨ .

احتلال طبرية .

إن أباهم أصر على أن يتعلم أبناءه اللغة العربية أثناء دراستهم باللغة الفرنسية . بل كان يمنع الكلام في القصر بها كان يقول : لا يجوز أن يقطع الإنسان جذوره وإلا تاه . ألا يكفي أن إسرائيل تحاول أن تقطع جذورنا .. أنساعدها على ذلك ؟ ..

راح الراوى يقول والقول يعرض بالصور :

احتل اليهود طبرية وهرب جميع السكان العرب منها . فجر الهاجاناه مقر قيادة القوات العربية . واستيقظ اليهود ليشاهدوا أمامهم صفاً من النازحين الخائفين .

واستمر الراوي يتحدث قائلاً:

بينما القائد البريطاني يتفاوض مـع الهاجاناه والعرب على خطـة الانسحاب ، كان هناك طابور من العرب الخائفين يغادر طبريـة . وظهرت البحيرة زرقاء ممتدة في الأفق على الشاشة . وقتال عنيف يدور بين العرب واليهود . واليهـود يحاولون احتلال الأحياء الأساسية في المدينة .

٢١ إبريل ١٩٤٨ .

احتلال حيفا .

يظهر على الشاشة الصغيرة ضابط بريطاني يناقش اليهود والعرب في وقف إطلاق النار . وقائد اليهود يضع شروط الاستسلام للقوات العربية . يبدو على وجوه العرب أن الشروط مهينة .

يغادر السكان العرب المتبقين في المدينة . شابتي ليفي المعروف بلطافته يطالب السكان العرب البقاء في حيفا . تنهمر الدموع من عينيه ، لكن العرب يغادرون .

يقول راوي الأحداث : تلقى العرب الضربة في حيفا وبدت اللطافة المريبة على البريطانيين .

احتلال يافا.

هاجمت عصابات الأرجون دون استشارة الهاجاناه مدينة يافا ، وواجههم المتطوعون العراقيون . وتولت الهاجاناه القضاء عليهم ، ومرة أخرى فر العرب .

يظهر مناحم بيجن يقول : العرب تنتابهم حالة من الذعر حينما يعرفون أن الأرجون يشتركون في الهجوم . ثم يظهر الجنود الصهيونيون يقومون بأعمال السلب والنهب . وإذا ما وجد واحد منهم أن هناك ما يتعذر أخذه قام بإتلافه . ثم يظهر الجنود اليهود من الهاجاناه والبالماخ يقومون بأعمال النهب والسلب والتدمير . وتشاهد الانفجارات في كل مكان . وحرائق تأكل الأخضر واليابس .

تدمع عينا رانيا وتقول :

– يا لها من فظاعة . كيف تمكنت من تصوير ذلك كله ؟ ..
قال بسام ضاحكاً :
– الفضل للحاسب الآلي .. يا فتاة .
وتعود تقرأ :
احتلال القدس .
يظهر إسحاق رابين قائد لواء الهاجاناه . تسأل رانيا : هل هذا هو رابين الذي كان رئيس وزراء إسرائيل ؟ .. يقول بسام : هو بعينه .
وتشاهد رانيا القوات الإسرائيلية تحتل منطقة الشيخ جراح في القدس . تقوم القوات البريطانية بطردهم لوقوعها على طرق الإخلاء الرئيسة . يوافق القائد البريطاني على إعادة المنطقة بعد انسحاب القوات البريطانية . تسأل رانيا : أكل ماعندك احتلال .. احتلال .. أين كان العرب ؟ ..
يقول بسام : أنتظري المشاهد التالية .
١٢ مايو ١٩٤٨ .
مذبحة كفار اتسيون .
الراوي يقول : هاجمت القوات العربية أربعة مستعمرات جنوب القدس . تقع على بعد ١٤ ميلاً في منطقة كفار اتسيون . اشترك السكان المحليون في الهجوم وتحولت المعركة إلى مجزرة . ويظهر ضابط عربي يأمر اليهود بالاستسلام . يتقدم ١٥ رجلاً يسلمون أسلحتهم . يأمر الضابط بتوقيفهم صفاً . يبرز أحد السكان العرب ويوجه رشاشه ويحصدهم جميعاً ويرديهم قتلاً.الضابط يحتج لكن بعد فوات الأوان .
يظهر بن جوريون على الشاشة في اجتماع مجلس الدولة ويقول : إن القتال في كفار اتسيون سيبقى ذكرى في تاريخ الشعب اليهودي . كمجزرة دير ياسين في ذاكرة الشعب العربي الفلسطيني .
تقول رانيا: النذل خمسة عشر رجلاً مقابل مئات من العرب ويسميها مجزرة.
يقول بسام : هذا تاريخ اليهود في فلسطين .

تلتفت رانيا إلى أخيها وتسأل :
- ألن تخرج اليوم ؟ .. أنا أشعر بالملل .
- ربما أخرج أنا وجانيت .
- إذاً خذني معك .

***

جلس بسام وجانيت على مائدة في ملهى ليلي . تجلس بجانبهم رانيا تتأمل المكان ، كأنها تدخله لأول مرة . مندهشة من الأضواء الساطعة في الزوايا والخفيفة في الوسط .. حمراء وزرقاء وصفراء تتوالى شعاعاً بعد الآخر . في الملهى . والراقصون يرقصون في ساحة الرقص . ويتقدم شاب من المائدة يبدو من سماته أنه لبناني الأصل ، يقول : مساء الخير يا بسام .
ينهض بسام منفعلا ويقوم بضمه إلى أحضانه بحرارة ، وقدمه إلى أخته وحبيبته قائلاً : رأفت شاكر لبناني الأصل فرنسي المهجر .
تأملته رانيا : أصفر الشعر ، ولو أن الصلع يدب في مقدمة رأسه وقذالته ، خفيف . ليس طويلاً مثل أخيها ، متوسط الطول مثل إبراهيم . يرتدي ملابس السهرة السوداء ، يبدو متأنقاً كأنه يعرف واجبات دخول الملهى الليلي بدقة .
سأله بسام : ماذا تفعل هنا ؟ ..
جلس دون استئذان بجانب رانيا وهو يقول :
- أبحث عن سمراء عيونها خضراء .
وفترت على وجهه ابتسامة ، ثم قال :
- لا .. لا .. أبحث عن بيضاء .. عيونها زرقاء .
ضحكت رانيا لخفة دمه وسأله بسام :
- ألم تعد إلى لبنان ؟ ..
- أ أعود إلى الخراب . إنني أعمل في وظيفة محترمة . ولي شقة فاخرة . ولكن ينقصني الأنيس . (وينظر إلى رانيا مبتسماً) ابتسمت رانيا كأنما فهمت أنه يقصدها .
يقول بسام : ألا تعتمد على والدك الثري المقيم هو الآخر في فرنسا ؟

يقول رأفت : إنه يدعوني إلى شق الطريق بساعدي ، يدعوني للكفاح الفردي . ويقول لي أعتمد على نفسك مثلما اعتمدت على ساعدي .
ثم يسأل رأفت :
– هل طورت تقنية الرسوم المتحركة ؟ ..
يقول بسام : أوه .. قطعت شوطاً هائلاً .. وصلت الآن إلى حرب ١٩٦٧ .
يقول رأفت ساخراً : أين تظن أنك ستعرض هذه الرسوم يا فتى ؟ .. في الغرب سوف يرفضون لأنها تمس إسرائيل . وفي الشرق قد يقبلون لكن الوضع يحتاج إلى اتصالات وأنت لا تجري أي اتصال .
يرد بسام قائلاً : أنا لن أعرضها إلا في التلفاز الفلسطيني بأذن الله.
يقول رأفت ساخراً :
– إذاً فلننتظر مائة سنة أخرى . لقد حرر صلاح الدين الأراضي الفلسطينية بعد احتلال دام طويلاً واستطاع من بعده حاكم عربي أن يحرر بيت المقدس بثمانين سنة ، وكانت تقنية الحرب بسيطة . أما الآن وقد تعقدت التقنية وامتلكت إسرائيل القنبلة الذرية والأسلحة الفتاكة .. فأبشر .. قد تحتاج لاقتلاعها إلى مائة وخمسين سنة ، فات منهم خمسون سنة فيبقى مائة . ..
قالت جانيت مقاطعة :
– ألا تكفا عن هذه السيرة . نحن الآن نلهو .. وليس هناك مجال للسياسة .
قال رأفت وقد ظهر أنه محب للثرثرة لا يوقفه إلا طوفان من الاعتراضات : أنظر ماذا فعلوا بجارودي حينما كتب عن الأساطير المؤسسة لسياسة إسرائيل . يحاكمونه لمعاداته للسلمية ..
قالت جانيت كأنما تعرف رأفت منذ زمن :
–أرجوك تكلم في شأن آخر ..
أحمر وجه رأفت الأبيض للمقاطعة الجريئة . وهمس لرانيا :
– هل ترقصين ؟ ..

نهضت على الفور وهى تقول : وهو كذلك . وغرق بسام وجانيت بعد ذلك في هيام لا يتوقف .

الفصل السادس
جزائرية في خطر

استقبل إبراهيم في مكتبه بشركة التصدير والاستيراد عصام الصيداوي . عانقه بحرارة . وطفقا يتكلمان . قال عصام : انتظرت أن يأتي السيد جلال ، فلم يأت . ذهبت للسؤال عنه ، قال لي الجيران - كما أبلغتك هاتفياً-أن القوات الإسرائيلية اجتاحت البلدة من البحر واعتقلته .. لا أعرف من الذي أوشى به ؟ .. إنها بلا شك وشاية . فالجنود كانوا يعرفون الدار . ملاذ السيد جلال . ويعرفون أنه موجود بها .وما ضربت صيدا بعد ذلك إلا تمويهاً وتم اقتناص الرجل تحت سمع ورؤية الأهالي .

قال إبراهيم بثقة :

- على العموم لقد تصرفت جيداً . وسوف يكون معنا بعد عدة أيام . إذا كانوا خطفوه فهناك من هو على رأس القمة خطف منهم .

ذهل الرجل وقال :

- كيف ؟ ..

- القوة لا تقرعها إلا القوة . لماذا تظن أن إسرائيل تعربد في المنطقة ؟ .. (سكت قليلاً كأنما ينتظر إجابة . ولما لم يجب قال) ..لأنها لا تجد من يردعها . أنظر التاريخ كيف شردهم الحكم الروماني .. وجعلهم يعيشون في الشتات أكثر من ألفي عام . كانت القوة هي التي شتتهم .

تساءل عصام :

- وكيف تأتي بالقوة .. وأصحابها على صلة حميمة بهؤلاء العبريون ؟ ! ..

قال إبراهيم : القوة لا تقترض يا عصام بك .. القوة تصنع .. يجب أن تكون صناعة القوة هي طريقنا سواء في السلاح أو الزراعة أو الصناعة أو حتى في التجارة ..

سأل عصام : ومن أين المال للقيام بهذا كله ؟ ..

• • •

أزت الكاتبة بمكتب إبراهيم الهاتف الداخلي . وقالت : السيد ألبير . قال : دعيه يدخل يا جميلة . وكان عصام الصيداوي قد انصرف منذ قليل . كلما سمع صوتها تذكر حكايتها . . تلك المهاجرة الجزائرية.قدمت من الجزائر لتعمل في باريس . كان يوماً يتريض ركضاً في حديقة الشانزلزيه في الصباح الباكر ، حيث كان الضباب يجثم على الحديقة . ولكن لما بدأ يرفع أقدامه عن وجه المدينة . ألتقي نظره بها جالسة تبكي على مقعد خشبي مبلل بالندى . سألها ما بها ؟ .. لم تجب وأجهشت بالبكاء . سألها من أى مكان قدمت ؟ .. ردت بالفرنسية التي تتقنها ، ووضح في ثنايا الكلام أن لكنتها جزائرية .عرف على الفور أنها مهاجرة جاءت إلى بلاد النور تسعي للرزق ، لكنها لم تجد يداً تمتد إليها . قال لها ضاحكاً : هل أفطرت ؟ .. هزت رأسها بالنفي والذل يحاول أن يشكل ملامحها . قال : انهضي . لنتناول إفطارنا معاً . مشت وراءه كأنها عبدة من العبيد أو بالأحرى جارية من الجواري . وعرف منها ما اكتشفه فيها. والدها سبقها إلى باريس ليسعى وراء الرزق ، بعد أن امتنع عليه في الجزائر . وكان يرسل لها ولأمها من حين لآخر مبلغاً من المال . ثم انقطعت أخباره . وتدهورت حالة أمها الصحية ثم فارقت الدنيا .سألها : أتعرفين اللغة العربية . أجابت مستعملة هذه اللغة : نعم أعرفها . سألها : ماذا لديك من شهادات ؟ .. قالت : لدى الثانوية العامة .. دون أن أتقن أى مهارات . قال : مثل ماذا ؟ .. قالت : مثل الكتابة على الآلة الكاتبة . ضحك وهو يقول : الآلة الكاتبة كانت في زمن متأخر . الآن الكتابة على شاشة الحاسب الآلي والطبع بالليزر .

أكلت بنهم ، كأنها صامت طويلاً دون أن يحدد صيامها بغروب الشمس أو بشروقها. . سأل ضاحكاً : لم نصوم لرؤية الهلال ونفطر لغروب الشمس . لم

لا نصوم لرؤيته ونفطر لغروبه . قالت : القمر يبقى في السماء منيراً تحجبه أشعة الشمس في الصباح . لو صمنا لرؤيته وأفطرنا لغروبه لبقينا أكثر أيام الشهر لا نأكل . المقصود بعبارة أفطروا لرؤيته أن نكف عن الصيام في الشهر التالي . أما الشمس فهي تغرب في مواعيد معينة معروفة . هز رأسه بالموافقة وهو يقول : هل تعملين في شركتي ؟ .. قالت : لكني لا أحمل ترخيصاً بالعمل . قال : داخل الشركة لن يراك أحد . وطفق يتأمل وجهها الأبيض الشاحب ، والشعر الأسود الناعم المتموج . والعينين الضيقتين في حجم البندقتين ، والطول المتوسط الذي لا يرتفع عن قامته . أخذها من يدها وهو يقول : تعالي تسلمي العمل . وكانت قد أخذت كفايتها من النوم في الحديقة . أصبحت أكثر نشاطاً بعد وجبة الإفطار الدسمة . هدية من السماء بعد قحط طويل الزمن .

• • •

دخل ألبير وهو يقول : هل من جديد ؟ ..

قال : وعدني القنصل أن يطلق سراحه في القريب العاجل . في كل يوم أطلبه حتى أعرف ميعاد الترحيل . قلت له إذا أطلق سراحه دون أن يأتي إلى مطار برلين في الموعد الذي أحدده لن أطلق سراح السفير .

قال : هكذا . يجب أن نكون على علم بالتحرك .

ألبير زميل وصديق إبراهيم منذ الطفولة .نشأت بينهما صداقة عميقة ، رغم أنه فرنسي الأصل ومسيحي أما إبراهيم فهو فرنسي لأب عربي مسلم تجنس بالجنسية الفرنسية .

لم يبق ألبير طويلاً وانصرف لقضاء مصالحه ، وهو يقول :

– خبرني أولاً بأول بالتحركات ، حتى نقوم بعمل اللازم في برلين.

– بطبيعة الحال .

صافحه ومضى . دخلت عائشة دامعة العينين تعرض أوراقاً على إبراهيم . سألها : مالك ؟...

قالت : بالأمس تعرضت لموقف خطير . قبضت على الشرطة . وأنت تعرف أن لا إقامة لي . وطلبوا مني مغادرة البلاد في ظرف أربع وعشرين ساعة .

قال إبراهيم : أمر مؤسف فعلاً ، لكن لدى طريقة لإنقاذك . إن فئات المهاجرين في فرنسا ثلاثة . فرنسي متجنس وله حقوق وعليه واجبات يتمتع بها الفرنسيين الأصليون . ومقيم أجنبي وله بعض الحقوق وعليه بعض الواجبات لكن لا يجوز للشرطة أن تتعرض له أو تمسه أو تطرده من البلاد ، لأن لديه ترخيصاً بالإقامة . والفئة الأخيرة المقيم إقامة غير شرعية ، وقد وقعت أنت في هذه الفئة .

– وما العمل الآن ؟ ..

قال ضاحكاً :

– أتزوجك .

– تتزوجني ! ! ..

– ألا تريدين أن تعيشي في فرنسا معززة مكرمة .

– لكن ما ذنبك أنت الرجل الثري تتزوج من عاملة فقيرة ؟

– خدمة .. ثم قال ضاحكاً : آلا تريدين خدمة ؟ ..

احنت رأسها وقالت : أخشى أن تكون مضطراً .

– يا سيدتي الفاضلة سوف تتحولين من الفئة الثالثة المغضوب عليها إلى الفئة الثانية ذات التكريم المحدود .

قالت تتأكد : سوف يكون الزواج صورياً

– ويوم تطلبين أن أسرحك بمعروف فلن أتردد . في هذه الحالة تبحثين عن أبيك وأنت غير مهددة بأى خطر . وتعملين عملاً مشروعاً دون خوف . وحينما تستقر أمورك اطلبي ما تشائين .

• • •

وخرجا معاً إلى موثق عقود الزواج من الأجانب . زواج مدني تم بينهما. وذهبا إلى قسم الشرطة الذي أمرها بالرحيل وأعلمهم أنه في سبيله إلى وضع

زوجه في الوضع القانوني اللائق بها . وأن على الشرطة أن تسحب قرارها بمغادرتها البلاد . نظر إليه الضابط المختص شزراً كأنما يقول له إنك تعمل ضد مصلحة الوطن . رمقه إبراهيم كأنما يقول له : لا تكن عنصرياً .وكان قلب عائشة يدق اغتباطاً . ينتفض من الخوف فقد يتعلل الشرطي أى علة ويأمر بترحيلها . أو لا يستطيع إبراهيم إقناع الضابط بالقانون الواجب التطبيق فتعود إلى الضياع .

ركبت بجانبه السيارة مبتهجة . وهى تشعر بالاستقرار يريحها على فراش وثير تنعم فيه بالدفء والبهجة وراحت تتنفس ببطء وهى تقول :

– هل ستأخذني إلي حجرتي ؟ ..

قال إبراهيم مبتسماً :

– هذا لا يليق بك .

– إذاً أين سأقيم ؟ ..

– سوف تقيمين في شقة لي في ضواحي باريس . كل ما عليك هو أن تأتي في الصباح إلى عملك في الساعة التاسعة وتنصرفين في الساعة الخامسة . وتعيشين في الشقة حتى تقولي لي : أنا آسفة لقد استقر حالي وأنا أريد أن أغادر الشقة .

– شكراً .. شكراً كثيراً ..

– – لا تشكريني . بل أشكري الظروف . وعلى العموم في أيام الآحاد سوف أمر عليك إذا كان لك أي طلب .

– ألا تريدين مني شيئاً

– في الوقت الحالي لا أريد .

فتح الباب في عمارة فخمة أنيقة . وصعدا بالمصعد إلى الدور الثاني . وفتح الباب الشقة ودخلت بعده . وهو يضئ نور الصالة. رأت أثاثاً رائعاً أنيقاً . وفتح لها الأبواب : هنا حجرة النوم . وهنا حجرة الطعام . وهذه حجرة المعيشة . وهذه حجرة الاستقبال . والصالة كما ترين . أثاث فخم وشقة مجهزة من كل الأدوات . سألته في خفر :

- أين تسكن ؟ ..

- أسكن في قصر والدي ، ليس بعيداً عن هنا . يمكن أن أمر عليك في الصباح وأعيدك في المساء . إلا إذا كانت لك مشاغل في باريس نفسها .. فيمكنك أن تتخلفي .

وقادها بعد ذلك إلى المطبخ وهو يقول : مملكة المرأة . ثم إلى الحمام : وهنا تقدم الإنسان .

ضحكت وقالت : نعم النظافة أول خطوة نحو الحضارة . ثم التفتت إليه وقالت : كنت أريد أن أذهب إلى حجرتي لإحضار حاجياتي ..

- يمكنك البقاء هنا إلى الغد . وفي المساء نمر على الحجرة لإحضار كل مستلزماتك .

سألها : ألا تريدين شيئاً

احتبست الكلمات في حلقها والدموع تكاد تطفر من عينيها ، لم تكن تصدق ما هي فيه من واقع ، وهذا الحنان الذي يحيط بها .

الفصل السابع
اغتيالات

عرض بسام الصور المتحركة الجديدة أمام سعيد . صديق رشا في الدراسات العليا . لم يكن الأمر غريباً أن يدخل سعيد القصر . وليس هناك دهشة عمت الجميع لتعرف غريب على أهل القصر . ويبدو الأمر عادياً في باريس . فأهل المهجر تطبعوا بطابع الفرنسيين في أن تدعو الفتاة صديقها إلى دار أهلها ، رغم أنهم ينحدرون من سلالة فلسطينية لبنانية مسلمة محافظة . ولو أن طابع سعيد المصري الصعيدي لم يتقبل الأمر ببساطة وقد تحركت في أعماقه مشاعر الاستغراب والريبة . كان يريد أن يندمج فيهم لكن قبوله إياه بسهولة أثار

شكوكه في هذه المعاملة وحرك مشاعر الاندهاش في نفسه . ولم يهدأ إلا حينما واجه نفسه : من أكون حتى يرفضوني أو يقبلوني لست مليونيراً حتى أشك في نواياهم ؟ ..

انقطع تيار فكر سعيد المريض بعرض الصور المتحركة ..ورشا تجلس تزدرد كأساً من الشاي ..

اغتيال برنادوت

٢٠ مايو ١٩٤٨

يظهر الكونت برنادوت على الشاشة ، وهو يصل إلى القاهرة ، تبدو عليه المهابة ، وهو يرتدي زى الصليب الأحمر . في صورة : الجماهير العربية تقابله بالاستنكار . وفي صورة أخرى اليهود ينتقدونه . جولدا مائير تظهر على الشاشة تقول : إنه رجل غير محايد ، لم يفهم ما هي دولة إسرائيل . ثم يظهر على الشاشة بعدها بن جوريون يخاطب أبا ايبان على الهاتف : عليك بالمطالبة بوقف إطلاق النار بأسرع ما يمكن . الوضع العسكري متأزم . يرد أبا ايبان : سوف أسعى إلى ذلك .

ينتقل المشهد إلى لافتة كتب عليها : حيفا . حيث بن جوريون يقابل الكونت برنادوت وهو ممتعض . الكونت يقول : يجب وقف إطلاق النار . بن جوريون يرد قائلاً : وقف إطلاق النار يساعد العرب ويضر الإسرائيليين .الكونت برنادوت يهمس لنفسه : كل من الطرفين يوحي بأن وقف إطلاق النار ضد مصلحته .

يتدخل الراوي في سير الأحداث ويقول : إن السلام الذي يطلبه كل واحد من المتنازعين هو السلام بين الذئاب والحملان . الذئاب تتحرش بالحملان . والحملان تتطلع الهواء دون أن تصيب الذئاب . لحظة التقاط الأنفاس سلام كاذب سموها هدنة .

ينتقل العرض إلى مشهد جديد يظهر فيه رئيس مجلس الأمن مندوب سوريا يعلن وقف إطلاق النار بين المتقاتلين . ثم يظهر الكونت برنادوت يقابل شاريت . يسر شاريت في نفسه القول : أنت عنيد وصلب لقد نفذ صبري معك . يقول

برنادوت : الحكومة الإسرائيلية في نظري لا تريد الهدنة على الإطلاق . ويبدو أن لا ثقة لكم بي . يربت شاريت كتف برنادوت ويقول : أهدأ.

يندلع القتال من جديد حيث تقوم القوات العربية باحتلال الشيخ جراح والحى القديم من القدس . وتحتل لطرون . وتجبر الإسرائيليين على بناء تحويل باسم طريق بورما. وفي مشهد آخر يهاجر السكان قريتين عربيتين هما بيت جن وبيت سوسين .

وفي مشهد آخر ، القوات اللبنانية والسورية تشق طرقات داخلية في المناطق المحددة لليهود . والقوات الإسرائيلية تتقدم إلى منطقة جنين .ثم يظهر الوفدان العربي والإسرائيلي يتفاوضان ، ويتفق الطرفان على وقف إطلاق النار مرة أخرى تحت رعاية الكونت برنادوت . وبينما يستقبل برنادوت المراقبين الدوليين لوقف إطلاق النار ، تحمل المراكب الأسلحة إلى الإسرائيليين .

الراوي يقول :تهريب الأسلحة مستمر إلى إسرائيل من جهة تشيكوسلوفاكيا . وهى تهرب دون اكتشاف من مراقب الأمم المتحدة .

وتعود الصورة إلى برنادوت وهو يقول :لو استأنف القتال في فلسطين فستكون هناك إدانة عالمية لهذا القتال .

وتسمع أصوات الرصاص والانفجارات و تشاهد ألسنة اللهب والحرائق .
يعود اندلاع القتال بشدة مرة أخرى .إسرائيل تهاجم اللد والرملة وتحتلهما .
يكتب على الشاشة : ١١ يوليه ١٩٤٨ .

هروب ٣٠ ألف من السكان من الرملة .الإسرائيليون المنتصرون ينهبون المدينتين .والنساء يغتصبن ويعاملن بوحشية وشدة . السكان يفرون مذعورين. السكان الهادئون في القرى المجاورة يشاهدون المذعورين يفرون معهم .

جيش القاوقجي ينسحب من الناصرة . اللواء محمد نجيب يهاجم صحراء النقب . يسلم أحد الضباط اللواء قرار عزله من قيادة الجيش. اللواء يمتعض . وتهاجم الطائرات الإسرائيلية غزة والعريش .

يظهر اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي على الشاشة حيث بن جورين يقول : لقد قبلت وقف إطلاق النار لمدة غير محدودة . إن هذا ليس ضعفاً منا ،

لكنه بعد عشرة أيام من الانتصارات المذهلة في تاريخ إسرائيل .ثم تظهر على الشاشة صورة الكونت برنادوت وهو يوقع مذكرة وقف إطلاق النار في ١٨ يوليه ١٩٤٨ .

بغتة يحدث هجوم إسرائيلي على مجموعة من القرى العربية جنوب حيفا . ويقوم العرب بتدمير محطة ضخ المياه في لطرون في المنطقة المنزوعة السلاح .تهاجم القوات الإسرائيلية المواقع العربية عبر منطقة الصليب الأحمر في القدس ودار الحكومة . وتطلق قوات عربية غير نظامية النار على طائرة للأمم المتحدة قرب غزة .

الراوي يقول : برنادوت رأى العرب أكثر مرونة وواقعية وكان يرى أنهم يرفضون الاعتراف بإسرائيل . وكانت خطته الأولى هي تمديد وقف إطلاق النار . وفي الجانب المقابل يرى الإسرائيليين استفادوا من وقف إطلاق النار وصاروا أكثر عنفاً وضراوة .

١٣ سبتمبر ١٩٤٨ .

الراوي : اتفقت وجهات نظر الولايات المتحدة وبريطانيا والكونت برنادوت على تعديل قرار التقسيم بحيث يعطى لليهود أراض هامة في الجليل الغربي يحتلونها بقوة السلاح . ومقابل ذلك يحصل العرب على معظم أجزاء النقب . وتعلن إسرائيل أنها تريد الجليل والنقب معاً.

يظهر قزم صغير يكتب على صورته اسم شامير . يقول : خطة برنادوت هذه كارثة . سوف تقضي هذه الخطة على الدولة اليهودية بعد بضعة أسابيع .

يوقع برنادوت تقريراً في جزيرة رودس . يعود إلى القدس . عصابة شتيرن تتربص به . إسحاق شامير يظهر حاملاً السلاح ضمن أفراد العصابة . تطلق العصابة الرصاص . يسقط برنادوت صريعاً وبجانبه كولونيل فرنسي (اندريه سيرو) .

تنتهي الصور المتحركة . يلتفت سعيد إلى بسام وهو يقول :

- إنها قصة طويلة .

يقول بسام :

- كان يجب أن تظهر الجذور والملابسات والأسباب وراء الاغتيال قبل عرضه .

يقول سعيد :

- اعتقد أنك يجب أن تلاحق العصر في فلسطين . ما رأيك لو قمت بتأليف اغتيال إسحاق رابين رئيس الوزراء السابق في إسرائيل.

- سيأتي دوره . لا أريد أن أفقد التسلسل .

ولم يرض أن يقول له أنه أعد الفيلم كاملاً مثلما أعد مذبحة قانا .

كانت جانيت تستمع إليهما وهما يتكلمان باللغة الفرنسية وذلك كان حتى لا تتضايق . بينما رشا مشغولة بمراجعة كتاب في الحاسب الآلي وجدته عند أخيها . كلاهما تخصص في الكهرباء الإلكترونية كأنما عقليتهما واحدة .

الفصل الثامن

الغموض في الوضوح المبهر

دخل إبراهيم على الأسرة وهى مجتمعة . وكان من بينهم ذلك الشاب الذي تعرفت عليه رانيا . وذلك الآخر الذي تعرفت عليه رشا.حياهم جميعاً وجلس بينهم . وصب لنفسه فنجاناً من الشاي . وابتدرته أمه متسائلة :

- ألم تجد بعد عروساً يا إبراهيم ؟

ضحك إبراهيم وهو يقول :

- لقد تزوجت يا أمي منذ أيام .

اندهشت وقالت :

- هكذا دون فرح .. دون أن تقدم لنا عروسك .. دون أن نراها .. وأين هي ؟ .. ولم لم تأت معك ؟ ..

قال إبراهيم مبتسماً :

- إنها من عامة الشعب . ليست ثرية . سوف لن تستقبليها بالترحاب . وهى ليست فرنسية . سوف تعامليها كما يعامل الفرنسيون الأجانب رعايا من الدرجة الثالثة .

اعتقدت الأم أن ابنها يهزي . لم تصدق كلمة من كلماته .دائماً يقول الحق ولا تصدقه .مكان غموضه في وضوحه المبهر . ولعل أسلوبه في الكلام هو الذي يوحي أنه يمزح مع أنه يقول الصدق.حولت الموضوع وسألت :

- ألا توجد أخبار عن أبيك ؟

قال مستمراً في الصدق والجميع يظنونه يهرج :

- كان والدي يقوم بمهمة سرية للغاية .. ولم تنته بعد . يوم أن تنتهي سوف أعود به إليك . إنها لم تنته بعد .

• • •

كان سعيد يجلس بجانب رشا يتأمل المكان الرائع . ويتأمل الوجوه الضاحكة لا يسمم حياتها شك وهى مستبشرة دائماً يتساءل نفسه : هل هي عائلة منحلة تستقبل الغرباء في بيتها دون أدني اعتراض من الرجال . إن ذلك يصطدم بالتقاليد التي عايشها وتغلغلت في أعماقه في مصر . أيجب أن أفلت من هذه الأسرة . إنني في مأزق فعلاً . لا أريد أن انسحب لأن أموال رشا كثيرة . خاصة أنها تعمل . إن مرتبها لأنها فرنسية أعلى كثيراً من مرتبي لأني أجنبي وأعمل بعض الوقت . بل إن هناك أموالاً تأخذها من أبيها سراً وهى لا تفشي أسرارها . هذه السيارة التي تملكها من أين اشترتها ؟ .. هل لديها قدرة مالية على شرائها ؟.. لا بد أنها أموال أبيها. الأموال تتدفق في يديها ، والأموال ناضبة في يدي. أتتزوجها . ولم لا . إن أربع أعوام نعيم أمر رائع . ما الضرر في ذلك ؟ .. وإذا كانت تريد أن ترحل معي فأهلاً وسهلاً لن يتركها أهلها تتضور جوعاً سيكونون سنداً لها فهذا مصدر آخر من المال يأتي عبر البحر المتوسط .

• • •

رأفت شاكر كان جالساً بجانب راشا. يفكر هو الآخر . هذه صفقة رابحة حلت على من السماء . أب بخيل لا ينتظر منه رجاء . صرف على دراستي بالقطارة . زوجه تتهاه عن الإغداق علينا - أنا وأخواي - وتدفعه إلى الإغداق على بناته منها . والوضع كان مؤكداً أننا سوف نتعرض لهذه المحنة وتلك المهانة يوم طلقت أمنا وماتت بعد ذلك . وتظهر سكرتيرة الأب في صورة الفتاة المثالية . ويغرق الأب كبير السن في غرام السكرتيرة الصغيرة . وتلتهمه. ولولا أنني شققت طريقي بعنف وحصلت على بكالوريوس الهندسة بجهد جهيد ، لما تماسكت ، ولسقطت كأخي الأصغر . ولأهتززت كما أهتز أخي الأوسط ، ذلك اللئيم . أعتقد أنه غير مهزوز كما يبدو إنما هو يمثل . كان يستثير عطف الأب ويجتذب مشاعر الزوج نحوه .

المهم أن تلك العائلة الغنية هي ملاذي الأخير . منها أستطيع أن استفيد . ربما يضع أبي رانيا في يدي أموالاً أستطيع أن أحقق بها آمالي ، يبدو أنه يغدق عليهم دون حساب . آه من هذه الآمال التي تراودني والتي تحطمت على صخرة بخل أبي . لعل رانيا تقنع أباها أن يقرضني حتى أبدأ في تنفيذ مشروع مثمر .

عند عرض الحلوى على المجتمعين ، اندفع رأفت يأخذ منها بنهم، لم يتصنع الاستعفاف مثلما أبدى سعيد . ولما امتعض إبراهيم وانصرف لأنه متعب . ضم رأفت نصيب إبراهيم إليه . ونظرت رشا إليه نظرة متضايقة ، لكن لم تستطع أن تعبر عما في داخلها من اشمئزاز . ولم تستح رانيا فقالت له : حيلك . . حيلك . غير أنه لم يهتم وتصنع ابتسامة وراح يقول لنفسه : لا أهمية أن تتضايقوا . أنا بخيل مثل أبي ، لكن ذلك على مالي الخاص . أما مال الآخرين فأنا مسرف فيه .

• • •

التقط إبراهيم السماعة في حجرته . وطلب رقماً وقال : جناب القنصل .
ظهر الصوت على الخط الآخر مرتبكاً وهو يقول : من ؟ ..

قال إبراهيم وهو يبتسم : أنسيت صوتي بهذه السرعة . أنا مختطف جناب السفير . قال القنصل على الفور : سوف يرحل جلال إبراهيم محمود إلى برلين كما طلبت . إن ميعاد وصول الطائرة الساعة السادسة مساء غد بتوقيت برلين.

قال إبراهيم : وبعد اليوم التالي سوف يكون جناب السفير طرفكم .

وقفل الاتصال دون أن يسمع تعليق القنصل . كان يود أن يتكلم معه لكن إبراهيم لم يسعفه . وخرج من حجرته قاصداً المطبخ . وطلب من الطباخ تجهيز وجبة عشاء دسمة في صينية . ثم حمل الصينية إلى حجرته وتلثم هناك. ونزل سلالم سرية إلى قاع القصر . وفتح الباب ليجد الرجل يقرأ في كتاب أعطاه إياه إبراهيم من قبل.

الفصل التاسع

لقد عريتهم

اجتمع عدد غير قليل من ناقدي السينما والممثلين المعروفين في معمل بسام. دعاهم لحفل يقيمه ويعرض فيه نتاجه الفني . وكان منهم من هم على صلة بالأسرة بحكم أنها تدخل في طبقة أصحاب الأعمال الكبار . ووزعت جانيت عليهم أكواباً من العصير الفاخر .. عصير البرتقال والتفاح . لم يرد حسان أن يحمل خدم القصر أعباء جديدة . ولو أنهم قاموا بعد ذلك بإعداد حفلة عشاء فاخرة .

وعرض فيلمه الإخباري الجديد النقب .ظهر على الشاشة :حدث في فلسطين. النقب .

الراوي يقول : تولى بانش دور المغدور الكونت برنادوت . حاول أن يجري اتفاقاً جديداً لوقف إطلاق النار . يسري مفعوله في ٢٢ أكتوبر ١٩٤٨ . لكن إسرائيل تابعت عملياتها العسكرية في النقب والجليل واحتلت أشدود والمجدل وبئر سبع . وعبرت قواتها إلى نهر الليطاني في داخل لبنان في الشمال .

كانت الذئاب تتوغل في أراضي الحملان . والحملان تتقهقر . جيش الإنقاذ العربي تبعثر . ولم يلعب أى دور في حرب فلسطين .

بينما الراوي يروي هذه الوقائع ، كانت المعارك على الشاشة تظهر . الإسرائيليون يتقدمون ببنادقهم ، وصوت الانفجارات يدوي . بانش يظهر على الشاشة يقول : المسألة الوحيدة التي يجب التفاوض عليها هي النقب لا سيما نشر مراقبين فيه .

يتغير المشهد ويأتي مشهد جديد . الرئيس ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يهتف قائلاً : إسرائيل يجب أن تكون كبيرة وقوية . يظهر بعده بن جوريون وهو يقول منزعجاً : إن مجلس الأمن كان يساوي بين المعتدين والضحية . يلتفت بن جوريون إلى مجلس الوزراء وهو يقول : ليست هناك نية للانسحاب من النقب لا فوراً ولا بعد حين . ونحن نعارض بشدة فكرة نزع السلاح . ووزير إسرائيل يقف في الأمم المتحدة ويقول : لماذا يسرق النقب من إسرائيل . إما أن يطوره اليهود أو يبقى صحراء إلى الأبد . ويقف أبا ايبان أمام اللجنة السياسية للجمعية العامة في ٢٣ أكتوبر يقول : النقب هو جزء أساس من الدولة اليهودية . وإذا كانت أرضاً لا تنفع كما يبدي البريطانيون فلماذا نعطيه للعرب ؟ .. اليهود وحدهم يستطيعون تطوير المنطقة . يلمح المشاهد أسماء الشخصيات التي تتكلم مكتوبة تحت صورتها ، كذلك صور الأماكن التي ترد في كلامهم .وانتهى الفيلم وطريق يسفلت بين بئر سبع إلى العوجة . والآليات الإسرائيلية الحديثة تمشي عليه .

اضيئت الأنوار . وكل يهمس ، ورغم انتصار إسرائيل كما هو واضح من الفيلم إلا أن معظم الوجوه كانت ممتعضة . شعر بسام أنه أخطأ إذ عرض الفيلم على قوم لا يحبون العرب . ومعروف أن أسرته فرنسية وغنية ، ورغم ذلك

فإن العداء واضح على معظم الوجوه . وانتقلوا بعد ذلك لتناول الطعام وهم لا يزالون يتهامسون كأنما لا يريدون أن يجرحوا صاحب الدار بكلامهم .
همس لجانيت قائلاً :
- أخطأت أن عرضت الفيلم .
- أبداً أنت لم تخطئ. لقد عريتهم . عريت نهب فلسطين بوضوح. قال أحد المشاهدين تعليقاً على الصور المتحركة : إنها تتميز بالعداء للسامية .
قال آخر يرد عليه :
- كل كلمة حق تقال أصبحت معادية للسامية . هكذا قلتم لجارودي حينما كتب كتابه الأساطير المؤسسة لسياسة إسرائيل .
ثم أردف قائلاً : على العموم بسام لن ينشر الفيلم . إنه سوف يسمح بعرضه حينما يكون هناك تلفاز ينطق قائلاً : هنا فلسطين .
همس آخر : أنت تخرف .

الفصل العاشر
تاجر سلاح

استدعى جلال إبراهيم المختطف من مدينة صيدا بلبنان ، والمودع في سجن إسرائيلي رهن التحقيق ، ليمتثل أمام المحقق الإسرائيلي . سار الرجل مع حارسه ، وهو يبدي آيات الاندهاش والتعجب من هذه التصرفات غير الأخلاقية . وعندما سأله المحقق : ما أسمك ؟
أجاب وصدره يضيق :
- قلنا جلال إبراهيم محمود .
وعاد المحقق يسأله بلغة عربية فصيحة :
- ما مهنتك ؟
- تاجر .. تاجر عادي جداً .

– وصل إلى علمنا أنك تتاجر في السلاح . تشتريه للفدائيين اللبنانيين وتبيعه لهم من أجل الإضرار بإسرائيل . . أنت تاجر سلاح أليس كذلك ؟

– كيف أكون كذلك وأنا لا أملك مالاً ووجدتم معي ألف ليرة لا غير . كيف ؟

– أنت تتاجر في السلاح مع أعداء إسرائيل ؟

– يبدو أن من أبلغكم ذلك يكن لي ضغينة .

– إذاً لم يطالب البعض في فرنسا بإطلاق سراحك ؟

– ياه .. أوصلت شهرتي إلى فرنسا .

– إنهم شركاؤك يطالبون بإطلاق سراحك .. فمن هم شركاؤك ؟

– أنا لا أفهم عما تتكلم . أنا لم أغادر ميناء صيدا يوماً إلا إلى بيروت لشراء بضاعة للعملاء فيها. وليس لي أقارب في فرنسا .. تلك التي تطلق اسمها .

– إنهم يطالبون بإطلاق سراحك وإرسالك إلى برلين بألمانيا . هل لك شركاء في برلين ؟

– فرنسا .. برلين .. يجب أن تستقر على وضع . وماذا أفعل في برلين وأنا من صيدا الواقعة في لبنان ؟ ..

– إذاً أكتب إقراراً أنك لا تريد أن تذهب إلى برلين حتى إذا ما خاطبونا نقول لهم أنك ترفض .

– لن أكتب إقراراً لا إلى برلين .. ولا إلى فرنسا .. ولا إلى صيدا حتى ..

– لم ؟

– لأني لا أعرف القراءة والكتابة .

– إذاً أكتب لك الإقرار وأنت تبصم عليه .

– لا هذا ولا ذاك .

– إذاً استعد لتسافر إلى برلين .. يا أيها المخادع .

ارتاح جلال قليلاً . ثم قال : برلين .. برلين .. المهم أن أغرب عن هذه البلاد .

* * *

قاده الحارس إلى زنزانته الانفرادية .. وطفق جلال يفكر من الذي وشى به لدى السلطات الإسرائيلية . إن أحداً من صيدا لا يعرف أنه تاجر سلاح إلا من يتعامل معهم ولا يعقل أن يوشوا به . لا .. لا .. إن هناك نورا كانت تعرف ، تلك العشيقة التي استبدلت بها سميرة .. بنت أختها الفاتنة . إن امرأتي دنت من الخمسين وحينما تدنو امرأة من هذه السن تكون قد انتهت كأنثى . نورا كانت رائعة قبل أن أغادر صيدا وحينما عدت تبينت أنها تزوجت فزهدتها . بل وجدتها على صلة ببحر لا ينتهي من العشاق فلفظتها . لا بد أن تكون لي وحدي . استأثرت بسميرة . لعلها عرفت أن سميرة بنت أختها هي عشيقتي الجديدة ، وأبلغت السلطات الإسرائيلية أو أصحاب السلطة المنشقين في الجنوب عن تاجر السلاح نكاية في . لعلها أبلغتهم أنني صاحب جنسيتين وأنني بمجرد أن أعقد الصفقة أغادر صيدا ولا تعرف إلى أين . وابلغ المنشقون سادتهم فأنزلوا قواتهم لخطف ذلك التاجر . مثلما اختطف الأمريكان نرويجا من بناما .. من عقر داره في بلده . وإلا فكيف يعرفون أن هناك شخصاً اسمه جلال إبراهيم محمود ؟ .. وكيف يعرفون مقر بيته ؟ .. وكيف يدخلون بيته عنوة وهو مع عشيقته ويتركون العشيقة ويختطفون العشيق ؟ .
لكن ماذا فعل إبراهيم ؟ .. وكيف عرف باختطافي ؟ .. وكيف أذل كبرياء إسرائيل ؟ .. حقاً إنه ولد ذكي . لكن كيف تخمن أنه وراء هذه اللعبة الخطرة ؟ .. دائماً كان يقول إن الحق الذي لا تسنده القوة يضيع . والقوة قد تكون مادية وقد تكون معنوية . ويبدو أنه لجأ إلى وسيلة لحمايتي وإطلاق سراحي من الاعتقال .

* * *

ركب الطائرة الإسرائيلية المتجهة إلى برلين . كان سعيداً لأن الإسرائيليين لم يسوفوا في إطلاق سراحه . لا بد أن ضغط إبراهيم كان شديداً . لولاك يا إبراهيم لضعت في غياهب السجون الإسرائيلية ، لكن عليك يا إبراهيم أن تتوخى الحذر ، فقد تكون تحت المراقبة .وأنت يا سيد جلال ستكون أيضاً تحت

المراقبة . كيف أفلت من هذه المصيدة ؟ .. يبدو أن إبراهيم وضع شرطاً هو تسليم رجل برجل ، فإذا ما تم تسليمي إليه يسلم رجلهم إليهم .

كان يرتدي ملابس إفرنجية بدلا من تلك الملابس التي خطفوه بها. أغدقت عليه الحكومة الإسرائيلية ولم يكن يعرف السبب . بل أعطته جواز سفر إسرائيلي حتى يتمكن من مغادرة البلاد فلم كل هذا الكرم؟ .. لما نزل في مطار برلين ، نظر حواليه . كان إبراهيم يقف بعيداً وأشار إليه أن يتوجه إلى دورة المياه . دخل جلال إلى دورة المياه . وإسرائيليان طارا معه من إسرائيل وتعقباه . كانا يرصدان خطواته . حتى لا يفلت من نظرهما وكانا يراقبانه من بعيد حتى لا يلفتا نظره أو نظر الذين ينتظرونه . ولم يدخل دورة المياه وتركاه يدخل وانتظراه في الخارج حتى لا يشعراه أنه مراقب .

بغتة خرج من الدورة عشرات الرجال يرتدون ملابس تنكرية . رأس ذئب . أو أسد أو خروف أو وجه دراكولا مصاص الدماء .. وجوه كثيرة ومكررة تخفي وجوه أصحابها . شلت المفاجأة تفكير الإسرائيليين ولم يتعرفا على الحلة الإفرنجية المميزة التي اشترتها الحكومة الإسرائيلية لجلال . هل استبدلها جلال بحلة أخرى داخل دورة المياه ؟ .. أم أن جلال لا يزال في الداخل ؟ .. ولاحظ الإسرائيليان أن عشرات الرجال تفرقوا .. في كل الجهات الأربعة . خافا أن يتبعا فوجاً منهم فيكون جلال لا يزال في دورة المياه ويفلت منهما . ودخل واحد منهم يبحث عنه . وخرج وقد أيقن أنه كان ضمن أفواج المتنكرين . وأن التنكر كان مدبراً . وفي لحظات قليلة كانت الأفواج قد تبددت آثارها . اختفت كل الأسود والذئاب والخراف. وتأكد الإسرائيلي من خروج جلال لما وجد البذلة المعروفة له ملقاة في مرحاض من المراحيض .

* * *

احتضن إبراهيم أباه بقوة . وقال له : حمداً على السلامة . ثم سأله: أعذبوك . قال : لقد تحملت السجن فقط ولو أن السن لا تسمح. لكني ضغطت على نفسي . يبدو أنهم ظنوا أن الواشي أخطأ . لكنهم عادوا وتأكدوا أنني تاجر سلاح حينما اتصلت بهم . لكنهم أذعنوا .. لا شك في ذلك . قال إبراهيم : لقد

اختطفت السفير الإسرائيلي . شهق الأب وهو يقول : السفير الإسرائيلي مرة واحدة . استطرد إبراهيم قائلا : هددتهم بقتله إن لم يفرجوا عنك .واختطاف آخر وقتله حتى يتم الإفراج عنك . قال منشرحاً : لم أكن أظن أنك بهذه القوة . وكيف عرفت بنبأ اعتقالي ؟ .. قال: ابلغني عصام الصيداوي أحد رجالنا في صيدا . سافر إلى بيروت خصيصاً وابلغني أن المخابرات الإسرائيلية اختطفتك . وفي الحال طلبت جان والبير وسيمون من الأصدقاء وقمنا بعملية اختطاف السفير وساعدنا في ذلك رفائييل سائق السفير . لقد التحق سائقاً بالسفارة واستخدمه السفير صدفة عند استقالة السائق السابق . ودبرنا مكان اللقاء والسفير الآن مودع في جب القصر .

سأل جلال ابنه وهو يقدر ذكاءه بعينين ممتنتين : ألم يلاحظ أحد ؟.. قال : كيف يلاحظون لقد دخلنا من الباب غير المستعمل إلى المرآب المهجور ، وهناك أنزلته في الجب . قال الأب : ومتى تعود؟ .. قال الأبن بثقة : في الحال ستأخذنا الطائرة إلى فرانكفورت ثم منها نستقل طائرة أخرى إلى باريس . ربما يراقبوننا على الطيران الفرنسي في برلين . التذاكر في جيبي وجواز السفر الإسرائيلي معك . أنت الآن واحد من الرعايا الإسرائيليين . سأل الأب : أتظن أنهم فقدوا أثرنا . قال إبراهيم : هل أعجبك الرجال الذين كانوا في دورة المياه متنكرين إن منهم ألبير ؟ .. قال : حيلة بارعة حقاً لم تكن لتخطر بأذهانهم . قال : لم يكلفوني كثيرا معظمهم من الكومبارس الألماني . إن المال يحرك الحجر . . سأل الأب : وماذا يحدث لو بحثوا عني في باريس ؟ .. قال إبراهيم : ليبحثوا عن قطرة ماء عذب في بحر هائج .

لم يتقدم ألبير الواقف بعيداً عنهما .. كان يراقب الموقف من بعيد حتى إذا حدث خلل في الخطة يقومه . وكان قد أعطى أحد الرجال المشتركين وجه الذئب الذي كان يضعه على وجهه . وكان وجه الحمل الذي ارتداه الأب قد ألقاه في سلة المهملات . والبذلة المميزة تركها في دورة المياه .

* * *

غادر السفير الإسرائيلي الجب في الفجر . وركب سيارته التي تحفظ عليها إبراهيم في المرآب المهجور حتى يتم الإفراج عن جلال إبراهيم محمود . وقاد إبراهيم السيارة حتى مقر السفارة الإسرائيلية ، يتبعه ألبير بسيارة أخرى . وجلس السفير معصوب العينين ومقيد اليدين وشريط لاصق بالفم يمنعه من الكلام . وبالقرب من السفارة ترك إبراهيم السيارة بمن فيها ، وركب بجانب ألبير . وانطلقت بهما السيارة . في الصباح اكتشف الدبلوماسيون سيارة السفير . ولما راحوا يفحصونها وجدوه فيها. وتقدم القنصل وشق صفوف الدبلوماسيون وأمرهم بالذهاب إلى أماكنهم . وراح يفك قيود الرجل وهو نائم . واستيقظ مفزوعاً كأنما عقرب لدغته .

الفصل الحادي عشر
ذكريات الإفراج عن الرهينة

شاغلت إبراهيم ذكريات الإفراج عن الرهينة .. في مأكله .. في ملبسه..في عمله .. وعند قيامه وقعوده . كأنما معايشتها ستدوم إلى الأبد . كان إبراهيم يرتدي ملابسه عندما انبثق في ذهنه انطلاقه وهو متجه إلى الجب قافزاً درجات السلم ملثماً . وفتح الباب فوجد السفير قابعاً نائماً ، وبجانبه كتاب كان يقرأ فيه حين داهمه النوم . . وكان إبراهيم يمده بالكتب كما يمده بالغذاء . وقال له : لقد صدقت حكومتك . وحان الآن وقت عودتك إلى عملك وبيتك . قال ساخراً : أستطلق سراحي . أجاب : نعم ولكن في نطاق إجراءات معينة . سوف أكبل يديك . وسأكمم فمك . وسوف أعصب عينيك . وعند باب السفارة سوف أتركك في سيارتك . آسف لذلك . لكني مضطر . قال : أفعل ما تشاء .

طرق الخادم الباب فتسربت كل الذكريات ، جاء يدعوه لتناول الإفطار مع العائلة . وكان هناك، أبوه محاطاً بالحب والحنان والشوق من كل أفراد العائلة . وانسابت الذكريات من جديد والسيارة الإسرائيلية تنطلق يقودها الملثم .. مخترقة الطريق من الضواحي إلى حي السفارة الإسرائيلية وترك الملثم السيارة

بالقرب من السفارة. وعلى بعد خطوات كانت هناك سيارة تنتظر . انطلقت بالملثم إلى داخل باريس ذاتها . وغاصت السيارة وسط السيارات وقد خلع إبراهيم لثامه وهو يضحك . كان ألبير يقود السيارة رابط الجأش . وكان عينا إبراهيم تبحث عن كشك للهاتف ، ولما لاح له طلب من ألبير أن يتوقف . ونزل إبراهيم بخطوات ثابتة وقال يتحدث لمن يهاتفه : سيدي القنصل . إن سعادة السفير موجود في سيارته . سيارة السفارة الإسرائيلية بالقرب من السفارة . بضع خطوات وتجده. أرجو الإسراع إليه . آسف إذ وثقت يديه وكممت فمه وعصبت عينيه ، لكنها إجراءات ضرورية حتى لا يصرخ ولا يرى الطريق ولا يقاوم ولا يعرف من نكون .

وقفل الاتصال وعاد من جديد إلى السيارة .

* * *

اتصل القنصل برجال الأمن في السفارة فهرعوا إلى الخارج مع قدوم الدبلوماسيون الذين تكأكأوا حول السيارة . مع قدوم القنصل من داره مسرعاً وطلب منهم دخول السفارة . ورجال الأمن يفكون قيود السفير . وتنفس الرجل الصعداء بقوة . ورفض أن يدخل المبنى وشاهد سائقه من بين المتجمعين فناداه وأمره أن يقود السيارة إلى داره . أسرع السائق إلى داخل السيارة ووجد المفتاح في فتحة الاتصال فأدار المحرك وانطلق إلى البيت .

قال السائق في الطريق :

– يا معالي السفير .. أنا آسف إذ خطفوك مني ولم أفعل شيئاً . أنت تدري أنهم كانوا مسلحين ، خفت على حياتك ولم يكن من المقبول أن أقاوم . قد أقتل .. وقد تقتل .

– لا بأس يا جاك . أنت لم يكن بإمكانك أن تفعل شيئاً المهم أن تجعل الأمر في طي الكتمان .

الفصل الثاني عشر
قبل العودة إلى صيدا

جلس في فراشه يفكر ويدخن ، بجانبه كانت دينا تنام . إنها تستغرق في النـوم حتى أنه يظن أنها لن تنهض أبداً . وإذا نهضت تعاود النوم بعد ساعات كأنها لم تنم من قبل . يبدو أن الشيخوخة داهمتها مبكراً . قالوا له إنهـا كـانت متلهفـة على عودته وحينما عاد بردت اللهفة .صارت لا تقبل على الحيـاة الزوجيـة ولا تفكر في السباحة في بحر العسل . لذلك اضطر أن يلاحق الأخريات ، ولكنه لـم يكن يمارس هذا النشاط في باريس . كـان يمارسـه فـي البـلاد الأخـرى حينمـا يرحل لعقد صفقات السلاح الجديدة . كانت البداية صعبة لكن كل شيء لان الآن في الطريـق . يعـرف كيـف يغطـي البضـاعـة .. وكيـف يغمـض عيـون رجــال الجمارك والشرطة سواء في ميناء القيام أو في ميناء الوصول . بل كيف تبارك الشرطة الاتفاقيات في الميناءين . إن تجارة السلاح أخطر من تجارة المخـدرات لكن هل لا تحاصر مثلها . وقد أمتد نشاطه بعد أن بدأه من ايرلندا الشـمالية فـي الشمال إلى أفغانستان في الشرق حتى كولومبيا والاكـوادور فـي الجنـوب والآن يصدر إلى الشرق الأوسط . وهـو معـروف فـي بـاريس أنـه يصـدر ويسـتورد المنتجات الغذائيـة فقـط ، ولـو أن هنـاك محـلاً لبيـع السـلاح ومستلزماته يديـره لزوجه يعمل في نطاق فرنسا لا يبيع السلاح إلا مقـابل إبـراز الرخصـة بذلك . وهو يتعامل مـع مسـتوردي السـلاح بأسـماء مسـتعارة يعرفـون شـكله لكنهـم لا يعرفون اسمه الحقيقي . يتم تبادل السلاح مقابل المال فـي نفـس الوقـت وتنتهـي الصفقة على الفور. هو معروف في فرنسا أنه مصـدر ومسـتورد أغذيـة . أمـا مؤسسة بيع السلاح فهي بالصدفة قابعة أسفل مؤسسة التصدير والاستيراد وهـي باسم الزوجة المصونـة . ولا صلـة لهـا بعمليـات تجـارة السـلاح التـي يمارسـها سراً، لذلك كان مطمئناً إلـى أن الإسـرائيليين لن يعرفـوا مقـره خاصـة أن ابنـه إبراهيم قد اصبح هو الظاهر أمام المتعاملين .

لما قامت الحرب الأهلية في لبنان امتنع جلال إبراهيم عن تزويد المقاتلين المسلمين بالسلاح حقناً للدماء ، فقد كان يرى أن وقف السلاح يوقف حمامات الدم في لبنان . موطنه الثاني . وكان موطنه الأول هو فلسطين حيث كان أبوه يعيش هناك . وهاجر إلى لبنان لما ازدادت ضربات الصهاينة على العرب . ترك فلسطين إلى صيدا في جنوب لبنان . وهناك اكتسب الجنسية اللبنانية واكسبها لأولاده . أما إخوانه فقد شتتهم الصهاينة أيضاً بالضربات الموجعة ، فغادر البعض منهم إلى الكويت والبعض الآخر إلى السعودية . وأسلم إبراهيم محمود الروح في صيدا . واستمر جلال يعيش على الكفاف في صيدا إلى أن قرر أن يغادرها إلى العالم المنير . ركب البحر إلى بيروت ومن هناك استقل سفينة إلى مرسيليا . واشتغل بحاراً في الميناء فترة من الوقت . ثم غادرها ليعمل لدى لبناني متجنس بالجنسية الفرنسية يعمل في تجارة السلاح محلياً . محله كان صغيراً ليس له تطلعات . يكتفي بالقليل . غير أنه أوحى إلى الرجل أن يتوسع و لم يمانع الرجل . قال بلا مبالاة : توسع . ونهض جلال من عشرين سنة من تحت حد الكفاف إلى مصاف المرموقين مالياً . وقد بلغها في الأربعين من العمر . حول المحل الصغير إلى محل كبير مرموق يخاطبه كل المغامرين في العالم . ولو أنه كان متخفياً ولا يزال تحت ستار مؤسسة التصدير وتوريد المنتجات الغذائية . وتزوج ابنة الرجل في لحظة ضعف مر بها الرجل اللبناني المتجنس بالجنسية الفرنسية . وتمكن جلال بعد ذلك أن يحصل على هذه الجنسية فيما بعد وورثها لأولاده . لكن كان الحنين يقتله كل يوم من أجل العودة إلى صيدا . والعودة إلى حيفا موطنه الأصلي لو أمكنه ذلك . وبنى القصر الكبير في الضواحي ، واصبح من المعدودين المرموقين في المجتمع الفرنسي . وبقي معروفاً لدى الجميع أنه من مصدري وموردي الأغذية . أما كونه يتاجر في السلاح مع كل المغامرين في العالم فلم يكن ذلك معروفاً على الإطلاق إلا لهؤلاء المغامرين . وعندما توسعت إسرائيل ومدت سلطانها إلى جنوب لبنان ، ولاحظ جلال مقاومة اللبنانيين من حزب الله ، لم يجد بداً من الاتصال برؤسائهم للاتفاق معهم على إمدادهم بالسلاح .. فمن

ناحية سوف يضع العقبات أمام إسرائيل في التوسع . ومن ناحية أخرى سوف يحقق أرباحاً طائلة من بيع السلاح .

قرر وهو لا يزال يرقد في الفراش يدخن السيجارة الثانية ، أنه سيعود إلى صيدا ليعرف من الذي أوشى به لدى القوات الإسرائيلية. إن أحداً لا يعرفه في العالم أنه تاجر سلاح . وإذا عرفوه فإنهم لا يعرفون أن اسمه الحقيقي جلال إبراهيم محمود . لا أحد يعرف إلا ثلاثة في صيدا لأنهم كانوا يعرفونه قبل أن يسافر إلى بيروت ومنها إلى مرسيليا . ولما عاد إلى صيدا في رحلة عمل نطقوا باسمه الأصلي فلم يستطع إنكاره ، ولم يدلهم على الاسم المستعار له في صيدا . لذلك فإن القوات المسلحة الإسرائيلية حينما أسرته كانت تعرف أن اسمه جلال ومن ثم فالذي أوشى به واحد من الثلاثة . إما نورا العشيقة السابقة . وإما سميرة العشيقة الجديدة . وإما زوج نورا الأبله ، ولسوف يعرف من منهم . ولسوف أعود إلى صيدا مرة أخرى حتى أعرف الجاني الواشي . لكن أمامي الآن مشكلتان هما زواج رشا ورانيا من هذين الشابين الفقيرين . وفجأة قطع تفكيره سؤال ساذج : ولم لا يكون عصام الصيداوي هو الذي أبلغ السلطات الإسرائيلية ؟ .. قد يكون عميلاً مزدوجاً . إنه همزة الوصل بينه وبين المقاومة اللبنانية وهو من الأشخاص الذين يعرفونه بالاسم الحقيقي . إنك إذاً تتهم الرجل بالخيانة . إنه سارع وأبلغ إبراهيم بالخبر حتى يسارع بالضغط على الحكومة الإسرائيلية للإفراج عني . وما مصلحته في أن يوشي بي . هل يخون جماعته؟ .. أتراه باعني للإسرائيليين ؟ .. هل أغدقت عليه إسرائيل بمبلغ لم يحلم به ؟ .. المسألة تحتاج إلى تحر وبحث عميقين . وعاد من جديد يفكر في زواج رشا ورانيا .. ما المانع أن يتزوجا الفقيرين ألم أكن فقيراً ولكنهما يفترقان عني في أنهما مهندسان متعلمان . وأن أحدهما يحضر رسالة دكتوراه في الحاسب الآلي ! .. قبل العودة إلى صيدا يجب أن أنتهي من هذه المسألة . لقد تقدما إليه الشابان يطلبان يدي البنتين . وأرى أنهما متيمان بهما . أحدهما مصري ما دامت تريده فلتذهب معه إلى الجحيم . والآخر فرنسي لبناني الأصل أبوه من تجار الخردة الأغنياء وسوف يترك له ولأخوته ثروة كبيرة لو مات . مع أن

الأعمار بيد الله . قد يموت الولد قبل الوالد . لكن لو عاش لجمع ثروة طائلة في يديه . لكن هل ستترك زوج الأب الثروة تضييع من يديها وأيدي بناتها؟ ..

* * *

انتهى عقد القران والاحتفال به في القصر . وقال جلال لزوجه :

– سأسافر في مهمة جديدة غداً .

هزت رأسها ونفضت كتفيها كأن الأمر لا يعنيها ، وهي تقول :

– أنت لم تعد تبقى في البيت إلا لماماً

–مصلحة العمل تقتضي سفري .

– أليس لك بيت ترعاه ؟ ..

ابتسم وهو يقول :

– يكفي أنك تراعيه . تراعي زوجك عند حضوره .

– ماذا تقصد ؟

– لا أقصد شيئاً . أبحثي عن معنى الشاعر .

* * *

لما ألتقي أبنه إبراهيم وأخبره ما قرره ، قال إبراهيم :

– لقد أرسلنا لهم كل ما تم الاتفاق عليه ، فما الداعي إلى سفرك من جديد وتعريض نفسك إلى الخطر . إن القوات الإسرائيلية لو اشتمت الخبر لعادت تقبض عليك تأسرك من جديد .

– سأسافر غداً إلى بيروت . وبعد غد سوف أكون في صيدا .

– لا تخف . لن أكون جلال إبراهيم محمود . حينما انزل بيروت سوف أتحول إلى شخص آخر .

وكان جلال قد أطلق للحيته العنان وكذلك شاربه ، وبدأ شعره الناعم يسترسل . لم يحاول أن يذهب إلى الحلاق لتهذيب شعره . كان يريد أن يغير من معالمه . رغم أنه يسافر بجواز سفر جديد تحت اسم جلال إبراهيم محمود . فرنسي الجنسية . والمهنة مصدر ومورد للأغذية . لكن في بيروت قصد على الفور أحد المصارف المعروفة ،وفتح خزانته ليلتقط منها عدة مفاتيح . أحدهما خاص

بشقته في بيروت والآخر خاص بداره في صيدا . وتوجه على الفور إلى الشقة في بيروت وفتحها . لا يعرف أحد ملكيته للدارين غير ابنه إبراهيم صديقه ومخزن أسراره وساعده الأيمن .

وأدار قرص الهاتف ليطلب أم داوود خادمه المطيعة وطلب منها أن تأتي لتنظيف الشقة . ودخل حجرة نومه ليفتش عن هوية يستعملها أثناء تجواله في لبنان ، وعثر على هوية أثيرة لديه . أحد شهداء الحرب القذرة في لبنان . استشهد على يديه وهما يسيران لا لهما ولا عليهما في أحد شوارع بيروت . قناص سافل أراد أن يضم لقتلاه اثنين جديدين . توارى جلال خلف دشمة في الطريق . بينما أصيب فاروق ونزف حتى الموت . وقام جلال بدفنه واقتنى بطاقته ليستخدمها في مهامه السرية في لبنان . كل ما فعله أن غير الصورة ثم طلب استخراج بدل فاقد واستخرجت له الهوية الجديدة وبها صورته واسمه الجديد . وكان قد رشا الجندي المسئول حينما اكتشف اختلاف صورة طالب البطاقة عن صورة صاحبها . وكثيراً ما اصطنع ذلك حتى تكدست في خزانته الهويات .

الفصل الثالث عشر

البحث عن مفقود

أتصل جلال بإبراهيم من بيروت . وقال له : لقد وصلت إلى بيروت ، سوف أغادرها إلى صيدا . إن اسمي الآن فاروق النابلسي. لا تنس . قال إبراهيم : ماذا تنوي أن تفعل ؟ .. قال جلال بثقة : سوف أبحث عن الواشي . قال إبراهيم وهو لا يريد أن يحرمه من المغامرة ، فطالما قص عليه مغامراته ولطالما حاول إبراهيم أن يقتدي به : لا تنس أن تتصل بي من حين إلى آخر . إنه مثله فقد دخل إلى معمعة مغامرة جديدة ، هو الآن في سبيله للبحث عن مفقود . والد عائشة زوجته الرسمية والعاملة في مؤسسة والده الفعلية . لقد وعدها أن يخرج معها من حين إلى آخر للبحث عن أبيها ، ذلك الذي رحل منذ

زمن إلى فرنسا ، واشتغل بعدة أعمال ، ثم انقطعت أخباره فجأة ، وجاءت تبحث عنه بعد وفاة أمها . ظنت أنها ستجد فرصة عمل في فرنسا ، لكن لم تغتنم فرصة واحدة ، وكانت تعرف أن أباها يعمل في باريس فقصدتها على الفور ، وتشردت حتى لاح لها إبراهيم ينتشلها وهى تكاد تسقط في هاوية العوز . كانت عائشة تعرف أن أباها كان عاملاً متميزاً وكان عمله في البلاد شرعياً ، لذلك قصدت على الفور اللجان النقابية لتسأل عن عضو فيها اسمه محفوظ بوزايد . كان يعمل أو لا يزال يعمل وما هو عنوانه .وقد مرا معاً في السبت الماضي على عدد من اللجان في نشاطات مختلفة : السيارات – الصناعات الغذائية – النقل والمواصلات . وأخيراً قررا هذا السبت أن يمرا على اللجنة النقابية للبناء . ابتدرهما أحد أعضاء اللجنة قائلاً :

– أنا أعرفه .

قالت عائشة متلهفة :

–– أين يقيم ؟ ..

قال الرجل كأنما لم يسمع سؤالها :

– إنه أحد الجزائريين العرب . مسلم . لقد دفعه رئيس اللجنة السابق أن يقود مظاهرة للمطالبة بتحسين الأجور . وأصيب في المظاهرة .

قالت منزعجة : أصيب .. كيف ؟ ..

– هكذا دائماً يعرضون العرب المسلمين لقيادة المظاهرات ، حتى يتلقوا الخطر في صدورهم ، إنه يفتديهم .

– وماذا كانت الإصابة ؟ ..

الرجل لا يحاول الإجابة . يحاول أن يتكلم كأنما السؤال لا يعنيه ، أو كأنما يريد أن يفرغ آلاماً في صدره قبل أن يجيب .

سأله إبراهيم مستغرباً : ألا تعرف مكانه ؟ ..

قال : كان يسكن في مسكن محترم قبل الإصابة . لا أعرف هل لا يزال فيه أم تركه ؟ ..

واصل إبراهيم الأسئلة : أين ؟ .. ألا تكتبه لنا ..

مد يده إلى درج مكتبه في كسل بالغ . وأخرج ورقة صغيرة وكتبها .
سألته : هل له أصدقاء يعرفونه .يمكن أن يدلونا عليه ، أو نستفسر منهم عن مكانه لو لم نجده في المكان الذي كتبته ؟ ..
ببطء غريب ، انتهى من الكتابة ، وهو يقول :
– الحقيقة لا أعرف .
أعطاهم الورقة ، وانصرفا .
في حارة قد تم تبليطها منذ القرن الماضي ، ولم يعرف الأسفلت لها طريقاً . مشيا يبحثان عن المفقود . الحارة تشبه تلك التي كانت تسكن فيها عائشة عندما وطأت قدماها باريس . وفي مسكن لا يختلف عن ذلك المسكن القذر الذي كانت تسكنه سألا عن محفوظ بوزايد . قالت سيدة عجوز : لقد انتقل من هنا لأنه لم يكن يدفع الإيجار . لا نعرف أين مضى . لقد ذهب وهو مصاب . تساقطت الدموع من عيني عائشة رغما عنها وهى تسأل : ألم يكن يعالج ؟ .. قالت السيدة العجوز : أعتقد أنه كان يعالج في المستشفيات العامة . قالت تسأل من جديد : ماذا كانت أصابته ؟ .. قالت العجوز : يبدو أنه كان جرحاً بالغاً في قدمه اليسرى ، كان يضطر إلى الزحف كلما كان يرغب في شربة ماء حتى أعطته المستشفي عكازاً . وطرده صاحب البيت من غرفته التي كان ينام فيها حينما تأخر في دفع الأجرة . وساح الدمع الهاتون مرة أخرى من عيني عائشة . نفس المأساة كانت ستعيشها لو امتنعت عن الدفع . كانت تعيش في حجرة بها خمس إناث . ثلاث منهن عاهرات . والاثنتان كانتا عاملتين للنظافة في مترو باريس ورفضت العاملتين أن تعمل معهما . ذلك لأن أقامتها غير شرعية . وحاولت العاهرات ضمها إليهن لكنها أبت.ترى أين يسكن أبى الآن ؟ .. هل ما يزال يعاني من آلام الإصابة ؟ .. هل .. هل مات ؟ .. وانقبض قلبها . شعرت به يتفتت في صدرها ولولا نفس عميق لما عاد والتأم من جديد . وإبراهيم يشدها ليخرجا من هذه المقبرة التي يعيش فيها الفقراء .
قالت وهى لا تزال تبكي :
– أين سأجده ؟ ..

- لنحاول أن نعرف أصدقاءه . غداً نذهب إلى اللجنة النقابية مرة أخرى ، لعلنا نجد قائمة بأسماء أصدقائه .

- غداً الأحد .. و ..

- لنذهب يوم الاثنين ..

ثم استطرد قائلاً :

- تعالي لنأكل وجبة الغداء .

حاولت أن تتملص منه وهى تقول :

- لقد أثقلت عليك .

- ألست زوجتي ؟ ..

قالت معترضة : ولكن كلانا يعرف أن وثيقة الزواج لإنقاذي من الطرد ...

قال ضاحكاً مقاطعاً : لإنقاذك من الفقر أيضاً .. ولإنقاذك من العوز . ولتسهيل الطريق أمامك لاكتشاف مكان والدك . ثم أنا رب العمل أدعوك لوجبة الغداء فما في ذلك ؟ ..

قبلت الدعوة فقد كانت جائعة . أنهكتها آلامها النفسية الداخلية ، وحرقت كثيراً من دمها ، واصبح واجباً عليها أن تمد جسدها بالسعرات الحرارية اللازمة .

تأملها في المطعم تأملاً عميقاً . كانت أنوثتها فياضة . عيناها الضيقتان تشعان حرارة وضوءاً . لعل مرتبها غير كثيراً من صورتها . يبدو أنه ساعدها على اقتناء ملابس جديدة أظهرت مفاتنها، كانت ثياب الفقر تخفي الجمال عن العيون .ولعل ماء العطر والعطر وقليلاً من الأحمر والأخضر غيرت كثيراً في شكلها .المرأة لا تستغني أبداً عن مساحيق التجميل . ما كاد المال ينساب في يدها حتى تطلعت إلى تجميل منظرها . بل لعلها جملت وجهها وصدرها وقامتها حتى تتناسب مع الوظيفة الجديدة وتكون جديرة بها .

سألها : ماذا تفعلين وحدك الآن ؟ ..

قالت : أقرأ .. الكتاب صديق لا أمله .

- هل أعجبتك الشقة ؟ ..

- لم أكن أحلم بها . .

لما انتهيا من وجبة الطعام الدسمة .أخذها إلى الشقة . لا يزال في جيبه مفتاح آخر للشقة ، ولكنه لا يستعمله . سألته : ألا تأتي لتشرب معي شاياً ؟ .. قال : لا مانع .

أعدت الشاي وهى لا تزال بملابس الخروج . ملابس محترمة لا تكشف ولو أنها تجسم فقط . قالت وهى تتقدم بمائدة متحركة : تفضل. أمسك يدها وهو يقول : يكفي ذلك ، سوف أصب الشاي ، لكنه لم يترك يدها ، وراح يسألها : أتنامين نوماً هادئاً ؟ .. قالت وهى تحاول أن تفلت من قبضته : إنني قلقة على أبي . . فعلاً قلقة . قال : ألا تهبيني قبلة من أجل ما فعلته . قالت : سوف يتطور الأمر بعد ذلك . قال : وما المانع ؟ .. ألست زوجك ؟ .. قالت : أخشى أن نتورط .. وقد لا تقبل أن أكون .. قال :لا .. لا .. لست عشيقتي . أنت زوجتي .

نهض وهو لا يزال يمسك بيدها ، وطبع قبلة على شفتيها . وضمها إليه وهى تقول ضاحكة : لا أعتقد أن عائلتك سوف توافق على تطبيع العلاقات بيننا ؟ ..

– أنا لست إسرائيلياً . ولا أنت العرب .. ثم أسرتي لا تعني شيئاً بالنسبة لي ، أنا رجل حر .. حاول أن يأخذها إلى حجرة النوم ، لكنها أحجمت :

– أفضل أن نشرب الشاي بدلاً من أن نتورط .

– وما المانع أن نتورط .. ألسنا زوجين ؟ ..

– وماذا لو حدث حمل ؟ ..

– فليحدث حمل يا سيدتي .. لا تهتمي ..

الفصل الرابع عشر

حصار الفالوجا

خرج بسام إلى الأسواق يستطلع الكتب المختلفة ، ترافقه جانيت . إنها دائماً معه ، لا تمل ، ولا تكل . لم يحاول يوماً أن يعدها بالزواج . ولم تحاول يوماً أن تدعوه إليه . كانت أمه تستغرب أنها ترافقه رغم أنها تعلم أنه مسلم ، فعادة اختلاف الأديان ما ينشئ حساسية في الحب . ولكن الدين لدى جانيت لم يكن يفرق بين إنسان وآخر . وكانت جانيت تعرف أن بسام لا يهتم بذلك ، علاوة على أن دينه يسمح أن يتزوج المسلم من كتابية . هكذا قرأت في بعض الكتب التي يحتفظ بها بسام في مكتبته.

كان بسام يبحث عن كتاب يتكلم عن حصار الفالوجا الشهير ، لكنه لم يجد إلا مقتطفات في بعض الكتب . لذلك عاد يحمل هذه الكتب ليغوص بعد ذلك في المقتطفات .ومنها يعد فيلمه القادم . كانت جانيت تحاول أن تشاركه في إعداد الفيلم حتى يذهب عنها الملل . تكتب له السيناريو بالفرنسية ، ولو أنه كان يخرجه أو يرسمه بالحاسب الآلي باللغة العربية . كانت لا تفهم في اللغة العربية شيئاً ، ولو أنها كانت تحس بالمواقف من خلال متابعة الفيلم ، قبل أن يضع بسام ترجمة بالفرنسية على الشريط .

وبدأ الفيلم بعرض قتال أكتوبر ١٩٤٨ بين القوات المصرية والسودانية والقوات الإسرائيلية .يصنع مشاهد القتال ، ويصور عنف المقاتل المصري ، ويظهر جمال عبد الناصر والضبع بين الصفوف وفي الصور المختلفة ومقتل الأخير . وتم حصار الفالوجا والمقاتل المصري والسوداني يستبسلان في الدفاع والهجوم . وتتوقف الإمدادات وتنقص ويظهر اليأس في قلوب العسكر ولا توجد بارقة أمل في النجاة من الحصار اليهودي ، ورغم ذلك يرفضون الاستسلام . يحاول الصليب الأحمر أن يتدخل لاخلاء الجرحى . يرفض الطرفان المصري والإسرائيلي عرض الصليب الأحمر . ينعقد اجتماع ليسفر عن هدنة . ينفك الحصار عن الفالوجا في أول مارس ١٩٤٩ . تخرج قوة مصرية قوامها ٢٩٠٠ رجل مع معداتهم العسكرية والشخصية من الفالوجا .

بعض السكان يحملون أمتعتهم هم الآخرون في اتجاه غزة . والبعض الآخر إلى هبرون . ويتسلم الإسرائيليون الأسرى الاسرائيليين قبل عودة القوات المصرية.

ازكات يقول : لقد عامل الإسرائيليون العرب المحاصرين في الفالوجا معاملة قاسية . وكان ذلك خطأ غير جدير بدولة .

•••

خرجا من معمل بسام ، ليشربا الشاي . تستقبلهما دينا دائماً بامتعاض . ووجهها تعلوه الكآبة غالباً . جانيت تلاحظ ذلك وتبلع غصة وتكتفي بعدم الالتفات إلى الأم . وبسام غير ملاحظ شارد في أفكاره والحلقات التي سيواصل ابتكارها . كانت دينا لا ترضى عن علاقتهما ، لكنها لم تكن قادرة على منع ابنها من مواصلة هذه العلاقة ولم تجرؤ يوماً على طردها من القصر .

تميل عليه جانيت وهي تقول :

– لم لا تبتكر رسوماً كرتونية مثل والت ديزني ؟ ..

تضحك الأم وترد قائلة : والت ديزني مرة واحدة .

ترد جانيت متحدية:

– بسام ليس أقل منه . إنه لو أخرج صوراً متحركة للأطفال لاكتسحت السوق . المهم أن تكون القصة مفيدة ومشوقة .

قال بسام متسائلاً :

– وأين هي القصة ؟ ..

– إن المكتبات مليئة بالقصص . خذ مثلاً خرافات لافونتين . أليست جميلة ؟.

– أنا أهدف إلى كتابة التاريخ الدامي لفلسطين ، وحينما أنتهي منه سوف التفت إلى ذلك .

قالت جانيت ، وهي تمد يدها تمسك يده وتعصرها بخفة :

– صدقني إن العملين يمكن أن يسيرا معاً ..

تحاول إن تقف الأم في طريق دعوتها :

– ألا يستلزم ذلك مالاً ؟ ..

يرد بسام وهو يدرك مرامي أمه ، تريد ألا يكون هناك جديد بينهما فيموت الحب من الملل :

المال موجود يا أمي ..

تسكت الأم ممتعضة . يلتفت بسام إلى جانيت وهو يقول حتى يقضي على مخطط أمه :

– انتقي قصة . واكتبي السيناريو والحوار لها .. وسوف أحققها في صور متحركة . تشد على يده ، وتميل عليه تقبله . والأم تواصل امتعاضها .

الفصل الخامس عشر
الإمكانيات صفر

طفق إبراهيم وعائشة ينتقلان من شخص إلى آخر ، أدلى عضو اللجنة النقابية للبناء الخاصة بباريس بأسمائهم . الأول أعتذر لأن الصلة انقطعت بينه وبين محفوظ بوزايد . والثاني قرر أن محفوظاً كان يأتي إليه لا يذهب هو إليه وأنه تخلف عن هذه العادة منذ سنوات .والثالث أجاب بأن صلته انقطعت بمحفوظ حتى قبل أن يصاب في المظاهرات لأنه كان رجلاً شرساً . حاولت عائشة أن تلقنه درساً في الأدب وحسن الحديث ، غير أن إبراهيم منعها . والرابع أجاب بأنه يعرف مكانه الجديد ولكنه لم يذهب إليه وطلب منهما أن يتوجها إليه لعلهم يجدانه فيه .ولاح لهما الأمل كما يلوح قارب نجاة لغريق يقاوم الموج . لكن في العنوان المذكور قررت سيدة مسنة أن محفظ بوزايد لم يمكث كثيراً في ذلك العنوان وقد غادره منذ سنة تقريباً . والخامس كان رجلاً جزائرياً ، تخوف في البداية وتوجس من سؤال إبراهيم ، ولما تدخلت عائشة وأعلمته أنها ابنة محفوظ بوزايد ، اطمأن الرجل .. لكن في النهاية أقر أنه لا

يعرف شيئا عنه منذ شهور .إذا فهو لا يزال على قيد الحياة ؟ .. ذلك أمر لا يعرفه إلا الله وحده .بعد أن أرتوي قلبها بالأمل ، وبدأت تتعشم بقرب اللقاء ، سقط الأمل في حفرة عميقة ، ولم يستطع أحد أن ينقذه . كان يلفظ أمامها أنفاسه على العمق ، هي لا تتمكن من إنقاذه من الهوة .

بكت على صدر إبراهيم . وقالت باللغة العربية : أريد أن أطمئن عليه . ثم أردفت باللغة الفرنسية : كان أباً حنوناً أرسل لي الحوالة بعد الأخرى وهو في الغربة . ولم يكن ليتوقف . يبدو أن الحادثة جعلته يتوقف لأنه تعطل . ويبدو أن الإصابة كانت مانعة له من العمل . ربت إبراهيم على كتفها وهو يقول : اصبري . ما دمت معك فلا تخشي شيئاً قالت وهي تضمه إليها : لم أعرف أن السماء سوف تشفق على بهدية إياك لي . وكانت قد تعودت بعد أن نقل زواجه من العقد النظري إلى الواقع العملي الفعلي ، أن تحدثه بأنت بدلاً من أنتم باللغة الفرنسية . حل الحب محل الاحترام الزائد .

قال : تعالي نتغدى .

أجابت : هيا بنا .

***

في المطعم جلسا متقابلين . منذ أيام كانا يجلسان متجاورين حتى يتمكن أن يلمس يدها وأن تضع رأسها على صدره ، لكن يبدو أن الزواج كلما تقدم في العمر تقلصت منه بعض الخطوات .

بينما ينتظران غداء معيناً ، سمعا شهقة امرأة تقول : أنت هنا يا إبراهيم . شاهد عائشة امرأة بجانبها فتاتين . ونظر إبراهيم ليجد أمه واقفة أمامه . قصيرة القامة متبرجة الوجه كأنها تعوض جزءاً من ضياع الشباب ، يبدو شعرها لامعاً من تحت قبعة فاخرة ، أرستقراطية المظهر . وقف إبراهيم يصافحها ويصافح أختيه . ويقدمهن إلى عائشة قائلاً

– هذه أمي .. وهذه أختي رشا .. وتلك الأخرى أختي رانيا..

كانت الأم على وشك أن تمد يدها غير أنها امتنعت ، وإبراهيم يقول :

– هذه زوجتي عائشة ..

تراجعت الأم عن المصافحة والأختان واقفتان مشدوهتان . وانبرت الأم تقول :
- معقول يا إبراهيم .. أتتزوج دون أن ندري .
قال إبراهيم : لقد قلت لكن ... كان ذلك في مجلس لنا منذ شهرين تقريباً .
قالت الأم معترضة : كنت أظنك تمزح .. كنت تمزح ..
ارتبكت عائشة . كانت على وشك أن تقف احتراماً للمرأة ، لكن عدم مد يدها للسلام جعلها تتراجع عن الوقوف . لم يكن التراجع استهزاء بحماتها ، إنما شعرت أن الأرض تميد من تحتها وأن قدميها لا تتحملان الوقوف .
وجهت الأم كلامها إلى عائشة قائلة بلهجة حادة جافة :
- كيف تسمحين له بذلك ؟ ..
لم تستطع أن تجيب . إن زواجها كان طوق نجاة من التشرد ، فهل ترفضه لمجرد أن الأم لا تسمح ولا تجيز . نظرت إليها نظرة شاردة حائرة ، وامتعضت الأم وقالت :
- لا .. لا .. أنا زعلانة يا إبراهيم .
انصرفت وهي تجر ابنتيها إلى سيارتها .. حيث ينتظرها سائق مدرب . فتح لها الباب الخلفي ، وانتظر حتى دخلن جميعا وقفله ، والتف حول السيارة ثم دخل إلى المقعد الأمامي وانطلق بالسيارة . وإبراهيم يجلس مشدوهاً من تصرفات أمه .. أفي القرن الحادي والعشرين يحدث ذلك . إنها أم متخلفة من القرن الماضي . وما يضيرها أن أتزوج أو لا أتزوج .ألم تعقد قران ابنتيها على مصري فقير ولبناني مقيم يعيش على مرتبه ويرفض أبوه المليونير أن يساعده بشيء . بل إن المصري واللبناني يقيمان في القصر ويدخران اجريهما ولا يساهمان في شئ. هل كانت تريد أن تنتقي لي واحدة وأتزوجها حسب رسمها ؟ .. يبدو أنها أم لا تزال تعيش في الماضي.
نظر ناحية عائشة . وجدها ساهمة .
- فيم تفكرين ؟ ..
-أفكر في هذا الموقف العصيب .

- لا تهتمي .. أريد أن تأكلي بشهية . وترمي خلفك كل الحمول والهموم .

لعل أمي لا تعرف أنني أهيمن على كل شئ . أعرف كل صغيرة وكبيرة في المؤسسة . وأعرف سر أبي منذ المراهقة . بل كنت أشاركه المسئولية كاملة . لعلها لا تعرف أنني الذي أقوم بعقد الصفقات السرية للمؤسسة .وأن كل ما يفعله أبي أنه يوقع ويضع المال باسمه . ويخرج إلى بلاد العالم يتنزه . أيكون واحد على هذه الدرجة من المسئولية تأتي امرأة لتلومه على فعل شئ . إنها لو ظنت أنها مسيطرة على تحركاتي لكان ظنها هباء . إن أحداً لا يتدخل في مملكتها . ولا يجوز لأحد أن يتدخل في ممالك الآخرين . وعائشة لا تعيش معها في القصر حتى يمكن أن تتحكم فيها . وأنا لا أعيش إلا لماماً هي تعرف ذلك فلم تغضب ؟ ..

سألت بعد أن تناولت وجبة الطعام :

- ما الحل ؟

- ماذا تقصدين ؟

- أرى أن أشكالاً بينك وبين أمك قد يتفاقم .. أرى أن تسرحني بإحسان .

- هل أنت بلهاء ؟ .. أنا لا أخضع لأحد .

- إذاً ماذا ستفعل ؟

- سوف تبقى الأمور على ما هى عليه .. أنت في بيتك .. وهى في بيتها . شاءت أن تعترف أهلاً وسهلاً . وإذا لم تعترف فلتفعل ما في قدرتها .. وأنا أعرف أن إمكانياتها تساوي صفراً .

الفصل السادس عشر
مسلسل النكد المستمر

لم تكن رشا تدري أنها دخلت بنفسها في مصيدة النكد المستمر . وقفت في البداية ضد والدتها لتوافق على زواجها من سعيد. قدره أبوها أنه فقير معدم لن يرفعها إلى حياة رغدة مستقرة ، إنما سوف ينزل بها إلى درك أسفل مما تتصور . غير أنها أصرت على أن تقترن به . فوجئت عائلتها أنها ترفض مهراً وشبكة . (علامة باللهجة اللبنانية) . لولا أن سعيداً أصر على شراء شبكة وكانت قيمتها في نظر العائلة متواضعة ، لا تليق ببنت مليونير . إنها أشبه بهدية من فقير لفقيرة . لذلك قامت رشا بدس فرنكات كثيرة في جيبه ليشتري بها شبكة لائقة . لم يعرف والدها هذا السر . ولم يمتعض سعيد من هذا التصرف وقبله دون معارضة . كانت متلهفة على الزواج منه . تجد أن المتعة معه هي منتهى آمالها . أحبته بعنف ولم تكن قادرة على هجرانه أو إسقاط حبها من قلبها .

غير أنها دخلت بقدميها إلى عالم من النكد المستمر ، لم تتحمل طباعه السقيمة . استمر الشك يملأ فكره ، ويحركه ويضغط عليه ويضبط كل تصرفاته . أصبحت سجينة تلميحاته . كان يتهمها من اليوم الأول أنها لعوب . كان لا يقبل أن تتكلم مع رجل . وتكون الطامة الكبرى لو ضبطها تهمس لزميل لها في الجامعة . أو تنزوي بالصدفة في ركن منها يتهامسان في مسألة رياضية . بل كان يخرج من الجامعة ويتوجه إلى عملها ، وهو يحاول أن يضبطها في وضع مشين . هكذا كانت عيناه تفشيان ما بداخله . كانت تهمس لنفسها أن تتجنب ما يثيره . أنت كنت تعرفين من قبل أنه غيور . لكنها تقول : إنه مريض .. مريض بفكرة أن المرأة خائنة بطبعها . ضلع أعوج . لا تكتفي برجل واحد ، لأنه لا يكتفي بامرأة واحدة . كثيراً ما ضبطته يغازل زميلة . ويدعي أنه كان يسخر منها . كأن يقول لها ما هذا الجمال وهو يعني ما هذا القبح !! .. ما علاقة السخرية بالغزل ؟ .. ويحاول بعد الضبط أن يسرد على مسمعها معالم قبح الزميلة . ولكنها أدركت أنه زير نساء متخف في ثياب قديس .

وقد أغضت الطرف عن وجوده في بيت أبيها .. يأكل ويشرب وينام في إحدى الحجرات الواسعة ، كل ذلك بلا مقابل . بل هو لا يساهم في شئ . وينقص أن يطالب أن تكون كسوته على حساب القصر . بل كانت تمر مناسبات دون أن يتقدم بهدية لأحد لا أمها ... ولا أخوتها بل كان يتجاهل أعياد الميلاد والزواج وعيدي الفطر و الأضحى .. وإذا ناقشته في ذلك يدعي أن هذه بدع .. أنا لا أعترف بها ولا يعترف بها الإسلام . لكنها عرف اصبح سائداً . وأنا لا أعترف بهذا العرف . ولم يفكر أن يشتري لها فستاناً أو هدية بسيطة بمناسبة أو دون مناسبة .

أدركت أنه يدخر مرتبه المصروف له من الحكومة المصرية ، ولا ينفق منه إلا القليل ، بل يحوله إلى حسابه الجاري في مصر .أما راتبه من العمل الإضافي لدى إحدى الشركات الفرنسية فقد كان يحتجزه لعله ينفقه في مطالب شخصية . كانت هي السبب في إيجاد ذلك العمل له بفضل معاملاتها مع الشركات الحاسبة التي تتعامل مع الشركة التي تعمل بها . غير أنها تغاضت عن تحويل المرتب إلى مصر . قالت ربما يريد – حينما نذهب معاً إلى مصر – أن تكون لديه ثروة طائلة فنبدأ حياتنا سهلة ميسورة ، لذلك تغاضت عن مناقشة تصرفاته المالية ولم تطالبه بشيء . وتذكرت أن عين الحب عن كل شئ كليلة وعين السخط تبدي المساوئ . كانت عين السخط غافلة ، وعين الحب تنظر وتقلب معاني الأشياء فتبدو الأشياء في رونق رائع مقبول . . ورغم ذلك كان يأتي كل يوم بنكد جديد : لماذا تغيبت عن العمل ؟ كيف تصلين هكذا من العمل متأخرة ؟ ..أين ذهبت يوم الأحد مبكرة ؟ .. تحقيقات لا تنتهي إجابات حقيقية لا يصدقها تجعل النزاع مستمراً مستعراً والشجار لا يهدأ . قرأت في كتاب أن سكان الوجه القبلي في مصر (الصعايدة) يعاملون نساءهم كأنهن عبيد . أو تحف . وقالت : لا .. لست عبدة . ولا تحفة .

•••

كان سعيد يقول لنفسه : لست طرطوراً . لو كانت هي متحررة .. فسوف أجعلها متحفظة .. أنا أطوع امرأتي كما أشاء . فكر في الوسيلة المثلى التي

يعيدها بهـا إلـى حظـيرة المحافظـات . لـم يجـد غـير الصـلاة ، فهـي تنهـي عـن الفحشاء والمنكر والبغي كما يقول الفقهاء . غير أن رشا لم تقبل أن تصـلي فـي البداية . ثم بدأت تصلي يوماً أو يومين ثم تنقطع . وقد تواصل أسبوعاً ثم تعود رشا إلى عاداتها القديمة . ودعاها يوماً إلـى ارتـداء الحجـاب . وليـس النقـاب ، فعرضت عليه القضايا التي أثيرت في فرنسا عن الحجاب . قال لها : لقد تعديت زمن الدراسة وأنت حرة تخرجين محجبة أو غير محجبة . قـالت : أنـا لا زلـت طالبة بالجامعة وأعمل . إن أول أجراء يمكن أن تتخـذه الشـركة ضـدي هـو أن تطردني . لن أرتدي الحجاب وأعمل ما بدا لك . وعرف أنه أمام عقل صلب لا يلين . وأنه لو اتخذ الخطوة الجريئة التي يتخذها كل زوج غيـور فسـوف تكـون عواقبهـا وخيمـة . فجـأة سـوف يـزول النعيـم .. الفـراش الوثـير والعـز الدائـم . والأكل الذي لم يكن يحلم به . وسوف ينفـق ممـا يدخـره ويرسـله حـوالات إلـى مصر . أنت إذا انتهازي . لا . لكن أريد ألا تزول النعمة .

وقد أقلقه وهو يحاول أن يلين . أن رانيا بدأت تتطلع إليه بعمق . كأنما تقـول : أنت حبيبي . يقول من خلال عينيه : اختشي فـأنت أخـت زوجتـي . أو يقـول لها وبصره يمتد إليها ويلثمها : أنت امرأة متزوجة . الفرق بين الأختين كبـير . الأولى أصبحت تميل إلى الجد أكثر من اللازم بسبب ضغطـه المستمر عليهـا ، والثانية مرحة لعوب لم يتمكن زوجها من شكمها . ولو أن الأولى قد تكون فـي بعض الأحيان مرحة لكنها لا تتمادى . أما مرح الثانية فلا حدود له . قد تعانقـه عندما تلتقي به . يتباعد لكنها تتقدم منه . لا يستطيع إلا أن يستسلم لعناقها . إذا كانت زوجه متحررة قيراطاً فإن أختها متحررة أربعة وعشرين قيراطاً ، ولعل فارق السن بينهما يبيـن أن الأولـى تخطـت مرحلـة المراهقـة ، أمـا الثانيـة فهـي شعلة ملتهبة غارقة في المراهقة بثقلها حتى أذنيها .

ماذا يفعل ؟ ..

إن عادة ما تتأخر رشا في عملها ، أما رانيا فهي ربـة بيـت لا تغـادره إلا فـي الصباح حينما تذهب إلى الجامعة وهي تذهب حينما يحلو لها ، وقد تمتنـع أيامـاً وتبقى في القصر . ، وزوجها يتركها لأن عمله مستمر إذ يشرف على ورديتين

في أحد المصانع ، وقد قبل ذلك حتى يكسب الكثير . لقد فكر سعيد أن يغادر القصر لكن أسعار الشقق الفارغة نار موقدة منعته وأسعار الشقق المفروشة جحيم مقيم أعجزه عن التفكير في المغادرة . ولا يخلو يوم لا تهاجمه فيه رانيا ويحاول أن يجاريها فتتمادى . وأدرك أنها تريد أن تستولي عليه . ولما اشتكى لرشا من أختها . قالت عبارة واحدة : إنها تحب أن تستولي على ما في يدي .

وراح يقول لنفسه : لكنى لست ملكاً ليمينك . وأخذ يردد : لولا بقية من إيمان وقدرة على كبح المشاعر لانزلقت . أخشى ما أخشاه أن أنزلق .

الفصل السابع عشر

حملان وذئاب

الحملان ترعي في أرض خضراء . مروج زاعقة اللون كأنها من صنع فنان تأثيري يحب الألوان الصارخة . السماء زرقاء خالية من السحاب . والأرض خضراء يملؤها النبات . وما بين قطعة أرض وأخرى طرق بنية . بعضها ذو طين غامق اللون مبتل ، والبعض الآخر ذو طين غير مبتل بنى اللون . وأشجار تلعب على أفنانها العصافير . وعلى أشجار أخرى تقوم الأم بدفع الحبوب في أفواه الطيور الصغيرة . . من خلال مناقير ملونة . وأصوات الحملان تواصل الثغاء .. ماء .. ماء .. مع أن الماء جد قريب منها . يجري الجدول هادئاً سائلاً على سطحه ورود تتساقط من فروع الأشجار المدلاة تشرب من الماء . وثمار الأشجار طفت على صفحة الماء بعد أن شربت كثيراً منه . لم يستطع القاع أن يتحمل خفتها فحملها السطح على كاهله مع الورود السابحات .

وبغتة . برزت الذئاب . كانت شاردة في أرجاء الدنيا ، غير أنها وعدت نفسها بأرض الحملان . تحدث المعركة الأولى فتثخن الحملان بالجراح ، وتسقط بعض الذئاب صرعى . وتحدث المعركة الثانية . تتكمش بقعة الذئاب

وتتسع بقعة الحملان . ويتقاتلون في معركة جديدة . تتوسع الذئاب وتلتهم أرض الحملان بسهولة . ويصبح على الحمـلان أن تقدم أفراداً قرباناً لتأكلها الذئـاب لحوماً سائغة . تبرز أنيابها ، تكشر كأنها تبتسم من السعادة . ويسيل الدم من أفواهها قطرات قطرات .

ترسل الحملان مندوباً عنها للذئاب حتى يحدث السلام بينهما .تضحك الذئـاب. تهز رؤوسها علامة القبول . غير أنها تنهش المندوب وتفتك بـه وتوزعـه على أفرادها . ويعود التناطح بين الذئـاب والحمـلان . ويبدو أنـه لن يتوقف ، لأن الشمس عندما تظهر يحدث التناطح . وعندمـا تغرب يتوقف ويحدث النهـش . وعندمـا تظهر من جديد تعود الكرة . لا يتوقف القتال . تناطح من جــانب الحملان ونهش من جانب الذئاب .رزق لم يكن على البال وفير . ولحم ذو دهن غزير ، مع هدوء ذي أنغام يسمح بالالتهام .

وفي مشهد جديد تهجم الذئاب على الحملان تريد أن تلتهمهـا يسقط حمل لم ينتبه إلى الخطر . ويفر الآخرون . يتشتتون في الأرض مثلما كانت الذئاب فـي الشتات .

طفقت الذئاب تتربص بهن . وكان من بين الحملان كباش ذات قرون حادة . وقفت فـي مواجهـة الذئـاب تنطحها برؤوسـها وقرونها والذئـاب لا تكف عــن المهاجمة .سقط ذئب والدماء تسيل من عنقه وآخر تراجع لكن الذئـاب لاحقت كبشاً وتكاثرت عليه سقط الكبش والذئاب تنهش في فروتـه المبللة بالدمـاء . لم تنفع القرون في الذود عن الحمى . واستسلم عنقـه للنهش والدماء تنبجس ، تغطي الأرض الخضراء باللون الأحمـر القـاني . تتحول الأرض وبقايا الكبش متناثرة على الطين الأسود كأنها جبال من نحاس ممزوجة بالرمال والطين .

تستمر الذئاب في القتال حتى تستعمر الأرض ، والحملان تتوارى وتتشتت . تتجمع الحملان فـي بقعـة أرض . وتتجمـع الذئـاب في بقعـة أخرى . الحمـلان ترعى من جديد غير شاعرة بالخطر . والذئاب تقيم المتـاريس وتحصـن المكـان وتدرب أفرادها على الافتراس .

•••

كان بسام جالساً وسط هيئة التحكيم التي عينتهـا شـركة الأفـلام لفحص نتاجه والنظر في فيلمه " حملان وذئاب ". وأشادت اللجنة بالألوان وإدارة الحرب بين الحملان والذئاب والاستعداد للحرب والمواجهة . وقـام رئيس اللجنـة يصافحـه وهو يهنئه على عمله البارع. وطلب منه أن يقابل المسئول للنظر في شروط التعاقد . وكانت بجانبه جانيت تشد أزره .

همست قائلة :

– سوف تدخل عالم الكرتون من أوسع أبوابه . وعندما قابلا مدير الشركة . قال يسأله :

– ألديك أفلام أخرى؟ ..

– عندي ولكنها ليست إلا تجارب مبدئية . لو أعطتني الشركة المادة الفيلمية لقمت برسمها وعليها أن تنتجها وتوزعها .

– هذا سهل . إن عملك هو الصعب .

***

خرج بسام وجانيت من الشركة يتضاحكان يشعران أنهما قبضا على الدنيا بأيديهما .قالت جانيت :

– نريد أن نحتفل بأول عقد .

قال بسام :

– لولا تشجيعك يا جانيت لما تحركت خطوة .

قالت مبتسمة :

– وراء كل عظيم امرأة .

همس وهما يجلسان عند مائدة في مطعم :

– ما رأيك لو دعمنا عملنا الفني بعمل اجتماعي . أن تظهر علاقتنا معاً في النور كزوجين بدلاً من رجل وامرأة متصادقين ؟ ..

– لا داعي لإثارة هذا الموضوع .

اكفهر وجهها . وأكلت بلا شهية . وهو يتأملها مستغرباً منها هذا التصرف : ماذا تخفي هذه المرأة ؟ ..

•••

لم تجرؤ جانيت أن تعلن أمام بسام أنها امرأة متزوجة . كانت تخفي عنه هذه الحقيقة لذلك لم تطالبه أن يعقد قرانهما وتتوج علاقتهما بالشرعية . كان زواجها قد حدث أثناء دراستها الثانوية . استكملت دراستها بالجامعة لكن زوجها رفائيل تخلف . كان قد أدمن الهيروين فحال ذلك دون مواصلة تعليمه . تعذبت معه وعذبها. وهربت منه إلى باريس آبقة من إقليم نورماندي . وهناك استكملت دراستها الجامعية ، أصبحت تعمل في إحدى الشركات المتخصصة في صناعة الخمور . ولم تلجأ إلى القضاء للمطالبة بفسخ العقد على أساس أن زوجها مدمن وذلك لأنه هددها لو لجأت للقضاء فسوف يقتلها . خافت . وأخذت تتقصى أخباره من عاملين بالشركة الأم يسافرون إلى فرع الشركة بنورماندي .حيث يتعاقدون على شراء العنب من هناك ونقله إلى المصانع بباريس . نقلوا إليها الأخبار أنه يتدهور يوماً بعد يوم ، وما عليها إلا أن تنتظر موته بين لحظة وأخرى . لكن لحظة الوفاة لم تأت بعد .أثناء ذلك تعرفت جانيت ببسام ، وجدت فيه القلب الحنون ، رغم أنه مسلم غير أن لا عصبية عنده ضد الديانات الأخرى. وقد قرأت في الكتب التي يحتفظ بسام بها في مكتبته وهي مكتوبة باللغة الفرنسية أن من تدخل في دين الإسلام لا يجوز لها أن تقترن بغير مسلم ولو كان من أهل الكتاب ، لذلك فإن زواجها من رفائيل سوف يكون باطلاً لو أسلمت. بيد أنها لم تحاول أن تتخذ هذه الخطوة ولم تتعمق في هذه الديانة التي يدين بها بسام حتى تعتنقها وتنقذ نفسها من زوج كريه . كانت مشبعة بتعاليمها المسيحية ورفضت الحل الذي يأتيها بترك دينها ثم إن القضاء الفرنسي قد لا يعترف بذلك . وسقطت في أتون من الجحيم . الخوف من رجلها الذي يهددها بالقتل لو فكرت في الانفصال . والقلق على مستقبلها في ظل رجل مأفون مدمن وانتظار أن يودع الحياة ، وهو متشبث بها إلى أقصى حد . وصديق إذا صارحته بالحقيقة قد يهجرها .

الفصل الثامن عشر
التراجع

ضغطت دينا أزرار الهاتف ، وانتظرت حتى ترد السكرتيرة ، وطلبت منها أن تحولها إلى أبنها إبراهيم . سألت الأم على الفور :

- مضى أسبوع لم نرك فيه في البيت ؟ ..
- أبداً .. مشاغل ..
- مشاغل .. أم أنت غاضب .
- ولم أغضب ؟ ..
- لأني تكلمت مع زوجتك المزعومة بلهجة عنيفة .. وسألتها كيف تسمحين له بذلك . وقلت لك .. أنا زعلانة يا إبراهيم ..
- يا أمي أنت تظنين أنك وصية على .. أنا أدنو من الثلاثين من العمر .
- لا .. لست وصية عليك . ولكن أعتقد أنني يجب أن أنبهك إلى ما فيه خرق للتقاليد ، وما فيه إحياء لها ..

-يا أمي .. التقاليد نحن نصنعها .. لا هي التي تصنعنا . وإذا خالفت التقاليد صنعتنا فالعيب ليس فينا ولكن في التقاليد . ما يضيرك أن أتزوج دون زفة ؟ ..وما عيب الفتاة حتى تكلميها بلهجة جافة ؟ .. هل جلست معها .. هل تكلمت معها ؟ .. كيف تحكمين عليها ؟

- طيب .. طيب .. تعال أنت وهى اليوم على الغداء لنتعارف . لا تكن مثل أبيك يغيب بالشهور ثم يعود . أستتغيب بالشهور أنت الآخر؟ .. إنك أبني البكر ولا أستطيع أن أستغنيٌ عنك .

- لو لم تكن هناك مشاغل فسوف آتي وهى معي .

انتهت المكالمة . عودها من قبل أن ينام في شقته أياماً وليالي . لكنها في هذه المرة اكتشفت أنه غاضب . ولا يحجم عن المبيت في قصر أبيه إلا لأنه ثائر . وكان مصروف البيت يوجه إلى حسابها الجاري في المصرف ، لذلك لا ضرورة لأن يسلمها المصروف في يدها . وقد عودها على ذلك منذ ست

سنوات ، حينما تسلم إدارة المؤسسة من أبيه . واصبح الأب يهوى الترحال خاصة إلى مسقط رأسه القديم في صيدا. يبدو أن ذلك هو ما يسمي الحنين إلى الماضي ، أو لعله من الممكن تسميته بالحنين إلى الفقر .ففي الفقر راحة بال يهنأ فيها الفقير وتجعله ينصرف عن اجترار مشاكله وحلولها العويصة .

تولى هو المسئولية في سن الرابعة والعشرين . كان يعرف أن والده يتاجر في السلاح الخفيف في داخل فرنسا علانية باسم أمه وفي التصدير والاستيراد باسمه . ويتاجر في السلاح الثقيل خارج فرنسا سراً . وأن زبائنه في جميع أنحاء الأرض . وكان يتعامل مع من يدفع . وطور إبراهيم أعماله في البداية واصبح يبيع للمغلوب على أمره حتى يقف على قدميه في مواجهة الغالب . ثم وضع أساساً آخر واصبح يبيع للمظلوم كالأقليات المغلوبة على أمرها والشعوب المضطهدة والمستعمرة ، ورفض أن يبيع السلاح لجماعات المخدرات أو الأقليات المتبجحة الظالمة أو العصابات السفاحة . ثم صار يقيم كل حالة على حدة ، فكان يبيع في البداية للفرق الأفغانية العاملة ضد الاستعمار الروسي . وتوقف عن إمداد هذه الفرق حينما أصبحت متناحرة . وقال : هكذا يكون الرزق حلالاً . وراجت تجارته رواجاً كبيراً حينما بدأ يبيع السلاح لرجال البوسنة والهرسك وجماعات الشيشان . وكان يرحل السلاح سراً وتتم رشوة رجال الأمن والجمارك أو يتم إرساله من خلال متسللين إلى الأراضي المظلومة .

لما شعر والده أن ابنه أنتقل من مرحلة الملايين إلى مرحلة المليارات ، ترك له الأمر والنهي ، وطفق ينهل من نهر الأسفار العذب حتى يشبع من مائه .

هل تراجعت هذه الأم عن موقفها المبدئي . لقد بدا عليها أنها ترفض أن يقترن ابنها من جزائرية تقيم في فرنسا . فهي لا تعرف أسرتها وهي لا تعرف مواردها المالية . وظاهر أنها فقيرة . ولعلها لا تدري أن من رد عليها بالهاتف ليست إلا هذه الجزائرية .

•••

لما اجتمع إبراهيم وحرمه بالعائلة . كانت هناك الأم دينا جالسة في كبرياء . تستقبل عروس ابنها وهي تحاول أن تظهر بمظهر الثرية الحسناء . وكان هناك أخوه بسام جالساً بجانب جانيت صديقته ، وأخته رشا الحزينة بجانب زوجها سعيد . وأخته الثانية رانيا وزوجها غائب عنده عمل إضافي . منكب ذلك الرجل على المادة ولا أهمية عنده أن تفوته مباهج الحياة . كانت الأم قد طلبت حلوى من مكسيم . وقررت أن تقيم حفلة صغيرة على شرف ابنها وحرمه، على الأقل حتى يقال أنها أقامت فرحاً على الضيق . وقالت لعائشة: كنت أود أن يكون معنا أبوهم جلال ، لكنه كثير الأسفار .

قال إبراهيم : على العموم لقد تعرفت به عائشة . إنها تعمل لدينا في المؤسسة . وتغاضت الأم عن العبارة الأخيرة كأنها لم تسمعها .

كان الحديث يدور باللغة العربية ويمتزج في بعض الأحيان باللغة الفرنسية حينما يفتقد التعبير باللغة الأولى .

سألت الأم : هل عائلتك في الجزائر ؟ ..

قالت عائشة : نعم لكن أمي متوفاة . وأبي يعمل في فرنسا . انقطعت بيننا وبينه الصلات . ولا أعرف السبب قد يكون تعرض لحادث أقعده عن المراسلة ...

قاطعتها قائلة : بعد الشر عنه ..

قالت عائشة : شكراً . بلغة فرنسية تبدو فيها اللهجة الجزائرية .

لاحظت عائشة أن وجه رشا متجهماً ، ولم تسأل عن السبب . كانت تحاول أن ترسم ابتسامة غير أنها كانت صفراء اللون . كانت منذ قليل قد تشاجرت مع سعيد ، حينما حانت منها التفاتة إلى شخص قريب يقود سيارة . شعره أصفر ، وعيناه زرقاوان . وأبيض بياضاً شاهقاً. وسألها سعيد : لم تنظرين إليه ؟ ..قالت : أنا يابنى لا أنظر إليه لكني أتأمل الطريق من جهته . أنت يا بني مريض . لم لا تعالج نفسك ؟ ..قال : لمجرد أن أطلب منك أن تغضي البصر تتفوهين بهذه الأفكار ؟ .. قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن . أليس ذلك أمراً من الله سبحانه

وتعالي . قالت : أنت تريد مني أن أخز عيني ولا أرى شيئاً حتى تستريح . وحتى لا يتطور الأمر اكتفي سعيد بالصمت . هل هو مريض فعلاً ؟ .. أم أن التقاليد غرست في صدره واصبح لا يمكنه أن يفر منها ، ولا يستطيع أن يفلت من قبضتها ، بل هي تقاليد الإسلام أليست هي مسلمة ؟ ..

كانت رانيا تتأمل أختها ، وهى تحدث نفسها : ما هذا الحظ المنكود ! .. إن القدر يوزع الأرزاق اعتباطاً ، ألم يكن من المستحسن أن أفوز بهذا الشاب الجميل ، الأسمر ذي الوجه الصبوح ؟ ! ..

***

انفض الاحتفال . وشد إبراهيم عائشة من يدها ، يريد أن يفرجها على حجرته في القصر . وانصرف بسام إلى معمله تصاحبه جانيت. ودخل سعيد حجرته ، تتبعه رشا ، وفوق وجهها عكارة لا يمكن للزمن أن يمحوها .

بعد أن تفرجت عائشة على الحجرة ، قالت :

– أستبقى هنا .

– إذا أردت .

– لا .. أنا لا أريد .. إن في شقتك أحس بأنني ملكة . أما هنا فأنا أحس أنني من الرعايا .

– إذن هيا إلى شقتنا أيتها الملكة .

الفصل التاسع عشر
استخلاص الحقيقة

استأجر جلال سيارة تأخذه إلى صيدا . وكان السائق كثير الكلام غير أنه لم يستمع لكلمة واحدة . كان يفكر في كيف يوقع بمن أوشى به لدى السلطات الإسرائيلية . فدخلت صيدا من البحر ، وتوغلت حتى داره الصغيرة ، وقبضت عليه ، وأخذوه إلى المعتقل . لولا أن خاطر إبراهيم ، وقبض على السفير الإسرائيلي ، لكان قد لاقى صنوف التعذيب ما لقي . المهم أنه لم يعترف أنه

تاجر سلاح ، ولكنهم الآن تأكدوا من ذلك حينما تم اعتقال السفير الإسرائيلي في فرنسا ، وأطلق سراحه في برلين ، فليس تاجراً بسيطاً - كما قال لهم - يمكن أن يذهب إلى برلين ويختفي هناك ويتوجه إلى أى مكان على الأرض ولا تكون هناك عصابة كبيرة تحميه . فضلاً عن إطلاق سراح السفير لم يحدث إلا بإطلاق سراحه . سوف يحاول أن يصل إلى الواشى بالدهاء . لن يضغط على نورا أو زوجها أو سميرة ، إنما سيحاول أن يتسلل إليهم ليعرف من منهم كان الواشي . وسوف يلتقي بعصام الصيداوي ليتأكد من أنه لم يكن له ضلع في المؤامرة . إنه يحن إلى صيدا رغم أنه لم يولد بها ، لكن ثلث عمره أمضاه بها . وحينما أطلقت يده في عقد الصفقات اصبح يجرفه الحنين إليها . كأنه صخرة يشدها انحسار الأمواج إلى البحر ، وسرعان ما تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ. لا يستطيع أن ينسى أيامه الأولى في صيدا، وعشيقته القديمة نورا . تلك التي تركها دون أن يستر فضيحتها ، فاضطرت أن تتزوج ذلك الأبله حتى تستر عرضها . وكان ذلك الأبله يحبها ويهيم بها ويغار عليها من الماضي. ولما عاد إلى صيدا وجدها متزوجة ، وترهلت ، أصبحت خالية من أي رونق . وتعلقت به ابنة أختها ، فأتخذها عشيقته الجديدة . ولم تطالبه بشيء لأنه أغدق عليها . ورغم أن العلاقة بينهما أصبحت واضحة إلا أن محبوباً - زوج نورا - كان لا يزال يظن أن العلاقة بينه وبين نورا مستمرة . وأنها تخونه معه ، وكثيراً ما يشاجره حينما يراه عند شاطئ البحر ويطلب منه أن يرفع يده عن زوجه . وغالباً ما يقول له إنه زهدها منذ زمن بعيد . وأحياناً يتركه يغلى بلا نار .

كان السائق يحدثه عن حرب الطوائف التي استعرت منذ سبع عشرة سنة . ولم يهدأ أوارها إلا أخيراً . وكيف أبلى فيها بلاء حسناً وجلال يقلب ضبط خطة استخلاص الحقيقة من هؤلاء الثلاثة بل الأربعة . وبشر جلال نفسه بعناء كبير حتى يمكنه أن يصل إلى الوقائع الدامغة الحقيقية . كان متخفيا تحت لحية كثة وشارب لبناني كبير ونظارة سوداء تحجب جزءاً من وجهه .

***

أضأ أنوار الدار القريبة من الشـاطئ ، تلك التـي يمتلكها باعتباره أحد أبنـاء لبنان . وإذا حاول أحد اعتراضه فإنه سيقول إنه فـاروق النابلسي أستأجر هـذه الدار من جلال إبراهيم . ويبرز عقد الايجار الذي يؤكد هذه الحقيقة .

لما جن الليل ، سمع طرقـاً علـى البـاب ، ففتحـه ، فوجد سـميرة أمامـه. بـدر أكتمل تمامه . مشاعر عامرة تتدفق منها الأنوثة . فتنة تتحرك فتجذب الأبصــار ، لكنه كبح جماح شوقه ، وهى تسأل :

– من أنت ؟ ..

قال جلال محاولاً أن يضخم من صوته :

– أنا مستأجر هذه الدار . ولم تسألين ؟ ..

قاطعته ولم ترد على سؤاله وهى تقول :

– أنا صاحبة هذه الدار فممن أستأجرتها ؟ ..

أجاب وهى تتأمله بعمق ، وتحاول اكتشاف ملامحه التي تغطيها اللحية والشارب الكثيفان ، لكنها تفشل في محاولتها :

– استأجرتها من السيد جلال إبراهيم .

قالت باستغراب :

– جلال إبراهيم ليس هنا .. حتى يقال إنك معك عقد إيجار منه .

قال : أنا أعرف ..

سمح لها أن تدخل ، وهو يدير لها ظهره .

– أين هو ؟ ..

– في باريس يا فتاة .

– لكني أعرف أن الإسرائيليين أولاد الكلاب والذئاب قد اختطفوه عنـوة مـن بيته .

هز رأسه وهو يقول بصوته الجديد الأجش :

– نعم .. نعم .. لكنهم أطلقـوا سـراحه وعـاد إلـى بـاريس . هنـاك التقيت بـه وكتب لي عقد إيجار الدار .

– ولم لم يأت ؟ ..

-يستجم . يستجم من عناء الاعتقال .
جلس إلى كنبة في البهو . وجلست على مبعدة منه .وراح يسألها :
- كيف تقولين إنك صاحبة الدار وللدار صاحب ؟ ..
قالت مرتبكة :
- الحقيقة أنه أئتمنني عليها . فأنا معي مفتاح . وأنا أنظفها وأمسحها . وألجأ إليها في بعض الأحيان لأستجم .
ثم سألت : أجئت للاصطياف ؟ ..
- نعم .. نعم .. الجو هنا جميل وعليل .
قامت مرتبكة وهي تقول :
- اسمح لي بالانصراف .
شد على نفسه حتى لا تندفع وراء أهوائها وهو يقول : أريد أن أراك يا .. ما اسمك ؟ ..
- سميرة !! ..
- أريد أن أراك يا سميرة كلما سنحت لك الفرصة . تعالي حتى تعرفينني بصيدا .
- وهو كذلك ..
كانت لا تزال تمعن النظر في ملامحه ، وكانت اللحية والشارب قد أخفيا كثيراً من قسماته ، بل إن نظارته السوداء التي استقبلها بها حجبت عينيه العسليتين وكان يمكن كشفه من خلالهما .
ثم سألها فجأة :
- كيف قبضت عليه القوات الإسرائيلية ؟ ..
- لا أدري .
- وما كانت تهمته ؟ ..
- لا أدري .
- ألا تعرفين أحداً وشى به .

- الحقيقة ليس لي اختلاط بالناس . إن الأستاذ جلال يغدق على مما جعلني لا أحتاج للاتصال بالناس . لذلك تجدني لا أعرف شيئاً.

***

في اليوم التالي ، سمع طرقاً قوياً على الباب . وشاهد أمامه نورا الحبيبة الأولى . تسأل في لهفة :

- أين الأستاذ جلال ؟ ..

قال وهو يقف حائلاً دون دخولها :

- إنه ليس هنا .

- إذاً من أنت ؟ .. ومن سمح لك بدخول هذه الدار دون أن يكون موجوداً ؟ ..

- أنا مستأجر لهذه الدار ؟ ..

- ومن الذي أجرها لك .. إن الأستاذ جلال معتقل لدى الإسرائيليين فكيف حصلت على عقد إيجار منه ؟ ..

- وكيف عرفت أنه معتقل ؟

- كل البلدة تعرف . سل أى أحد منها سوف يقول لك .. لقد دخلوا القرية عنوة ، وأخذوه من داره . لم يأخذوا شيئاً إلا إياه .

صادقة فعلاً ، فقد وجد سيارته الخاصة راقدة وراء الدار ، وقد فرغت عجلها من الهواء بسبب طول الانتظار . ووجد خزائنه سليمة لم يمسسها أحد ولم يحاول أحد كسرها . بل وجد جواز سفره الفرنسي القديم في الخزانة ونقود كثيرة تملؤها .مما يدل على أمانة سميرة ، أما نورا فلم يكن لها مفتاح للدار . فقد كانت علاقتهما قد انتهت ولو أن زوجها ظل يناكفها ويتهمها باستمرار العلاقة.واستغرب جلال أن تأتي وتتفقد حالة الدار . ربما تطمئن على حبيب القلب الذي أعتقل ، فالعشرة لا تهون إلا على ابن الحرام.

وبغتة سمعا صوتاً أجش خلفهما يسألها :

- ماذا تفعلين في بيته يا مجرمة ؟ ..

وكانت قد دخلت حينما انسحب جلال إلى الداخل ليفسح لها الطريق. وهجم محبوب عليها يريد أن يفتك بها . وهى تدفعه في صدره عنها : ستبقى أبله طول العمر . لن تكبر أبداً .

ونظر نظرة واحدة إلى الواقف أمامها وقال :

– وأنت .. أمازلت طليق السراح ؟ ..

سألت المرأة : ومن أين تعرفه ؟ ..

قال وهو ينظر نظرة ثاقبة :

– هذا جلال يا مرة .. كيف أطلقوا سراحك ؟ ..

وجه الكلام إليه . رد جلال وقد انكشف أمره . كشفه ذلك الأبله الذي يقال إنه فاقد العقل :

– أطلقوا سراحي لأن لا تهم ضدي .

– كيف ؟ .. ألا تتاجر في السلاح ؟ .. ألا تبيع السلاح للمقاومة وتقبض الثمن ؟ .. السلاح الذي يفتك بجنود إسرائيل .

كان يتهته وهو يتكلم . وينطق الكلمات بصعوبة ويلفظها بقوة . ولطم على خديه وقال وهو يتوجه ناحية نورا :

– إذاً سوف تعودين إليه مرة أخرى . سوف تعودين إليه يا نورا . في هذه الحالة سوف أقتلك .

سأل جلال في حومة الكلام :

– إذاً أنت الذي وشيت بي عندهم ؟ ..

– طبعاً.. تسللت الحدود إلى جيش لحد . وهناك أخبرت المخابرات الإسرائيلية عنك وعدت . كانت فرحة ما بعدها فرحة حينما قبضوا عليك . قبضوا على الوجيه جلال إبراهيم محمود . وارتحت أنا .. ارتحت من خيانتها . هدأت نفسي وزال قلقي لكن ها هو القلق يعود من جديد .هذه العاهرة سبب قلقي لا تزال تحبك .

وكان محبوب لا يزال يتهته وهو يروي الأحداث بدقة ويتفجر مكنون صدره وينطق الكلمات بقوة كأنما يبذل مجهوداً حتى يطلقها . وتركه جلال يتكلم حتى

يعرف ما لديه من أسرار . هذا الرجل يا جلال هو الذي ستر جرمك يوم تركت نورا عرضة للقيل والقال . إن الرجل تعذب من العلاقة السابقة بينك وبين نـورا .. وهو لا يزال يتعذب .

شده جلال من يده وهو يقول :

– ليس بيني وبين نورا أى علاقة .. يمكن قبل زواجكما كانت هناك علاقـة . أما بعد ذلك فإن العلاقة انقطعت . فأهلاً بها .. أهلاً بها وغادر البيت .

ولا يدري كيف جاء استخلاص الحقيقة سهلاً . وكان يظـن أن مـن الصعوبـة بمكان كشف المستور .

الفصل العشرون
الذئب الجديد

مال زميلها عليها وقال :

– أتريدين أن تعرفي أخبار رفائييل ؟ ..

اضطربت جانيت وقالت :

– أتعرف شيئاً ؟ ..

أجاب بمكر : إنه رصد مكافأة لمن يرشده على عنوانك . كان يجلس في الحانة حينما صرح بذلك . ما رأيك هل أقـول لـه وأقبـض المكافـأة ، أم تـراك سـوف تعطيني مكافأة أكبر منها .

– مثل ماذا ؟ ..

قال الرجل وهو يميل عليها ويهمس :

– قبلة طويلة المدى . فراش مخضب باللون الأحمر ..

قاطعته وهى تقول : يالك من سافل ! ..

– إذاً فأنت تمانعين ؟

سكت ثم قال : إنه ينوي أن يقضـي عليك . كنت أظـن أن نقل أخبـاره إليك سوف يكون بمقابل . ولكنك كنت تستقبلين الأخبار دون مقابل . كظمت جـانيت غضبها . وقالت :

– لا داعي لأن تنقل لي أخباره .

قال الرجل : ولكني نقلت لك الكثير ألا أستحق القليل ؟ ..

نهضت من على مكتبها غاضبة وقالت :

– انصرف .. لا أريد أن أراك .

قال وهو يلقي ورقة أمامها :

– إنني منتظرك اليوم في شقتي . وهاك العنـوان . إذا لـم تـأت فسوف أبلغـه بمكانك . جزاء بسيط على عدم رضوخك .

جلست ووجه الذئب الجديد تغرب عنهـا . لقد أدركـت أنهـا وحيدة . وأن لا حامي لها ، لذلك بدأ يصطاد في المياه العكرة . وجد أن الأمر سهل وأنها سوف تخضع . ولكن خضوعها لـن يكون لمـرة واحـدة إنمـا سـوف يتكـرر وسيضيع استقلالها . لن يرضى الذئب بلقمة واحدة إنما يريد أن يستولي على الرغيف كله . أو يبلغ عنها رفائيل الغاضب الحاقد الشاعر بالهزيمـة لهـروب امرأتـه منـه . ويريد أن يقتص لسنين طويلة من العذاب .لم لا تلجأ إلى بسام ، قد يعينها علـى زوجها وعلى هذا الذئب . يجب أن تكون صريحة معه ، وتخبره أن لهـا زوجـاً وأن الزوج مدمن ويريد أن يقتلها لأنها هجرته . وأن ذئباً كان ينقل لهـا أخبـاره لسفره المتواصل بين بلدتها في نورماندي وباريس حيث تقيـم الآن . وقد أخفـى الذئب حيوانيته وحبه للحم البشري وهاهو يميط اللثام عن الوجه البشع .

التقت جانيت ببسام لقاءهما اليومي بعد الساعة الخامسة . كانت مضطربة قلقة لا تعرف ماذا سيفعل معها وبها بسام ، ترددت طويلاً غير أنها تشجعت وروت القصة .

سألها : لم لم تقولي لي أنك متزوجة ؟

قالت والدموع في عينيها : خشيت أن أفقدك . أنا جئت إليك اليوم باعتبـارك صديقاً أكثر مما أنت حبيب .

قال بسام : وماذا يمكنني أن أفعل ؟ ..
قالت جانيت : احمني . قال متسائلاً : وكيف أحمك ؟ .. نكست رأسها وقد لاح لها أن بساماً يريد أن ينفض يديه منها . غير أنه كان يفكر وقال لها : تعالي اسكني معي في القصر . واتركي عملك واعملي عندي سينارست ، فأنت بارعة في كتابة السيناريو . واختفي من وجه ذلك الذئب . ثم سكت قليلاً وأضاف : يجب أن تطلبي الطلاق من زوجك ولسوف تحكم المحكمة إذا عرفت أنه مدمن .

سألت : هل هذا جائز ؟ ..

قال : اعتقد وعلينا أن نتوجه إلى محام لمناقشته في رفع دعوى ضد زوجك تطلبين فيها الطلاق . ثم أردف : وهناك حل آخر أن تعلني إسلامك . ولا يجوز لمسلمة أن تكون زوجة لكتابي .. أقصد مسيحي أو يهودي .

سألت : وهل الدين لعبة يا بسام ؟ ..

قال بسام وهو يشعر بالحرج وأنه أخطأ : ذلك حل من الحلول أعرضه عليك ..

سألت : يمكن أن يتم التفريق بين المسلمة والكتابي في البلاد العربية أو الإسلامية ، لكن هنا في فرنسا هل يأخذ القضاء بهذه القاعدة خاصة أن الزواج تم طبقاً للقانون المدني ؟ ..

الفصل الحادي والعشرون
قصص أطفال

كأنما وجد بسام طريقه ، فأتخذ من الذئاب والحملان مادة لرسوم الكاريكاتير أو الكرتون . وذلك مثلما اتخذت السينما الأمريكية من القط والفأر مادة لرسومها . ولكن كان في ذهنه دائماً أن الذئاب هم الإسرائيليون ، وأن الحملان هم العرب .لكنه لم يفصح أبداً في فيلم من الأفلام عن ذلك . ومن ثم كتب وأخرج غزو مصر في عام ١٩٥٦ دون أن يظهر أن إسرائيل هي الذئاب وفرنسا هي الثعالب وبريطانيا هي الأسود وروسيا هي الدب وأمريكا هي الفيل

، على أساس أن الحزب الجمهوري كان يحكم أمريكا في ذلك الوقت وسمى المسلسل : الحملان والذئاب .

كان الفيلم الأول عن ثعالب وأسود تدخلت في حياة الحملان وبنت لها قناة بين بحرين . ولما تقدم الكبش الكبير يشكر الثعالب والأسود على تشييد القناة . همس الثعلب الكبير في أذن الكبش أنهم سيكونون شركاء في إدارة القناة ، حتى يستردوا ما صرفوه في حفرها وبناء شواطئها وتعميق مجراها .

تدور الأيام والذئاب في البلد المجاور يتكاثرون . والحملان ترعى دون أن تأخذ حذرها . واستطاع كبش من الكباش أن يعزل الكبش الكبير ، ويتولى سلطة البلاد . ويأمر الثعالب أن تخرج من إدارة القناة ، ويسترد القناة ويديرها الحملان . لا تهنأ الثعالب والأسود بهذا الاستيلاء وتجتمع مع الذئاب في البلد المجاور ويقررون الاستيلاء على بلاد الحملان أو على الأقل الاستيلاء على القناة ، مدعين أنهم أحق بإدارتها وتشغيلها وأرباحها .

وهكذا تقوم حرب بين الحملان والثعالب والأسود وتعضدها الذئاب. يتدخل الدب الكبير لإنهاء الصراع ولكن يستمر القتال بين الذئاب والأسود والثعالب ضد الحملان . يسقط أفراد صرعى من الطرفين . تحتل الذئاب والأسود والثعالب القناة . وبغتة يتدخل الفيل وكان يتفرج على القتال الدائر ويأمر جميع المعتدين بالانسحاب . ويشعر الثعالب والأسود بالذل . وتتلكأ الذئاب في الانسحاب غير أن الفيل يطاردها حتى تنسحب .

•••

شاهد أصحاب شركة الأفلام الفيلم الكرتوني فأجازوه . غير أن يهودياً من العاملين في مجلس إدارة الشركة ألمح قائلاً : أليس ذلك يا سيد بسام سيناريو حرب السويس ؟ .. تجاهل بسام سؤاله واستفسر : ما هي حرب السويس ؟ .. إنها محض رواية . هز اليهودي رأسه وقال وهو يحك ذقنه : ربما .

وهمست جانيت : لقد كشف الحقيقة .

ابتسم بسام وقال : لا.. إنها قصص أطفال .

•••

بينما بسام عائد إلى القصر وبصحبته جانيت ، كانت أحداث حرب ١٩٥٦ تتوالى صورها في ذهنه . كيف اكتشف اليهودى عضو مجلس الإدارة بالشركة عن الفيلم أنه عن تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر ؟ .. مع أنه لم يذكر أى شئ عن تمويل بناء السد العالي وموافقة بريطانيا والولايات المتحدة على المساهمة مع البنك الدولي في تمويل بناء هذا السد ، ثم سحب أمريكا عرضها بشكل مفاجئ ثم تأميم قناة السويس وإعلان عبد الناصر أنه سوف يستخدم عائدات القناة في تمويل بناء السد العالي . كان ذلك اليهودي يريد أن أظهر عبد الناصر كهتلر جديد ، يهيج شعبه ، ويثير الاضطرابات في خارج البلاد ، ويعمل على سحق اليهود فيكون هناك مبرر لمقاومته . لكن فوجئ اليهودي أن الحملان تنتصر على الذئاب . قالت جانيت تنتقد بسام : لم تشر من قريب أو بعيد إلى ضياع السيادة المصرية والعربية على مضايق العقبة .

قال بسام : وهل فيلم للأطفال يحتمل ذلك ؟ ..

قالت : وميلاد ميناء إيلات على أنقاض قرية عربية اسمها أم الرشراش .

قال بسام : قد نلمح لذلك في الفيلم القادم .

وسألت : وماذا عن نجاح إسرائيل في نقل البترول عبر إيلات إلى أشدود على البحر المتوسط .

قال بسام : أنا لم أقصد أبداً أن يكون الفيلم للكبار يا جانيت .

قالت : وماذا عن فتح الملاحة أمام إسرائيل في البحر الأحمر وتوطيد اقتصادها مع دول أفريقيا .

قال بسام : إن الكبش في الفيلم كان ثائراً منتصراً قد يكون في الفيلم القادم خائراً محطماً .

– وهناك سيطرة البحرية الإسرائيلية على البحر الأحمر وتهديد كل الشواطئ العربية من الأردن ومصر حتى باب المندب .

– أنت لا تريدين أن تفهمي .

–هناك كذلك ما دفعته مصر لحملة الأسهم بشركة قناة السويس المؤممة من أموال طائلة .

- أنت تريدين أن أظهر ناصراً .. كما لو أن قراره كان غير سليم ..
- فعلاً ذلك ما أريده . ولو كان قد أحسن باللين والسياسة عمله لما تكبدت مصر كل هذه المشقة .
- لكن دعايته كانت تظهر أنه انتصر على الدول الثلاثة .
- انتصار زائف .

الفصل الثاني والعشرون
العصافير لا تتظاهر

بينا كان إبراهيم وعائشة يقومان بجولتهما البحثية الأسبوعية عن والد عائشة. صادفا مئات المتظاهرين بالقرب من كنيسة سان برنار. سألا أحد المشاهدين للمظاهرة : ما الأمر ؟ .. قال الرجل بصوت خافت : هؤلاء هم الأفريقيون الذين لا يحملون أوراق إقامة كانوا يحتلون الكنيسة منذ نهاية يونيه الماضي . وشاهدا المتظاهرين يتجمعون من عند زوايا الشوارع متجنبين الاصطدام بقوات الأمن المنتشرة في محيط الكنيسة الواقعة في حي شعبي شمال العاصمة الفرنسية . راح الرجل يقول : وقعت صدامات بين المتظاهرين ونحو ألف من جنود الشرطة خلال عملية إخلاء الكنيسة بالقوة . أطلقت الشرطة الغازات المسيلة للدموع وحطموا باب الكنيسة بالفؤوس ، أوقفت الشرطة حوالي ستة وأربعين أفريقياً من العناصر المتظاهرة .

انطلق إبراهيم بالسيارة ومعه عائشة وهى تقول :

- لو لم نتزوج .. لكنت في خضم هؤلاء المتظاهرين .

قال إبراهيم متسائلاً :

- وهل العصافير يمكنها أن تتظاهر ؟ ..

ابتسمت لأنها أدركت أن المقصود بالعصافير إياها .

جالا في الحي العشرين يبحثون عن عم محفوظ بوزايد ، مثلما أشار صديق له من قبل . لكن المحاولات باءت بالفشل . وبينما يدخل إبراهيم سيارته في

مرآب العمارة عائدين إلى شقتهما ، لاحت له فكرة تحولت إلى سؤال : لم لا يكون الرجل مسجوناً ؟ ..

حينما عاد طلب على الفور البير صديق العمر وزميله في العمل ، قال له : إنني أبحث عن شخص اسمه محفوظ بوزايد ، جزائري ، عاش في فرنسا منذ عشر سنوات . كان يعد زعيماً من زعماء العمال ، ربما يكون مسجوناً ، فهل تبحث لي عنه في السجون ؟ .. قال : سيكون لديك الخبر اليقين بعد يومين . وطلبه ليخبره بعد ذلك : لا يوجد سجين بهذا الاسم . قال : سوف أثقل عليك يا أخي فابحث لي في المستشفيات . قال : غالي والطلب رخيص كما يقول المصريون . لكن الجواب جاء – مرة أخرى – سلبياً.

أخبر عائشة بمجهودات ألبير ، فسألته : لم لم تقل لي . قال: خشيت أن تفسري الأمر تفسيراً سيئاً. أو تتضايقين لأني أبحث عن أبيك في السجون . فأبدو كمن يبشر عليه بالسوء . قالت : أبداً لقد لاحت لي الفكرة ، لكن لم أكن قادرة على أعلانها لأنك قد تقول لي إنك لا تعرف أحداً يدلك .

الفصل الثالث والعشرون

وداعاً صيدا

جلس عند شاطئ البحر ، يتأمل المراكب المتوقفة عن الحركة .. تأهبا للتحرك . تأخذ قسطاً من الراحة ومنذ شهور كانت تأخذ راحة إجبارية . شلتها القوات الإسرائيلية . أرادت أن تشل حركة أهل صيدا تماماً . ودخلت القوات المسلحة الإسرائيلية تبحث عنه ، تأخذه عنوة من داره ، ذلك الأبله زوج نورا دلهم عليه . كان يتمنى أن أعيش في غياهب السجون الإسرائيلية مدى العمر . لكن خاب أمله . فشل مخططه . والغريب أن لا صلة بيني وبين زوجه ، وهو حتى الآن يعتقد أن هناك صلة . لقد كان مشدوهاً وهو يتعرف علي . الساذج اكتشف من أكون ، وبقية العقلاء ظنوا أنني شخص آخر غير جلال إبراهيم

.صدقوا أنني فاروق النابلسي ، حتى سميرة لم تتعرف على . أريد الآن أن أنفض عني شخصية فاروق النابلسي وأعود إلى سميرة .. من جديد ، بعد أن تتأكد أنني جلال إبراهيم . لقد أحيت في البركان وكان قد خمد . برود زوجتي دينا كان السبب . لقد داهمتها الشيخوخة المبكرة في قواها الجنسية . أصبحت باردة ، وكنت أعتقد أنها سوف تشعر بالأوار الذي في قلبي فتبادلني المشاعر ولو تمثيلاً حتى ارتوي . لا تشعر أنني أحترق رغبة .إن الرجل لا يشيخ يا دينا ما دامت قواه سليمة .ويبدو أن وصول سن اليأس إليك أفقدك كل شئ حتى الإحساس بمطالب الزوج . أنت الآن كائن يشرب ويأكل ويتحرك ولكن لا قابلية له للمتعة . ألا تشعرين أنني كنت أتشوق لضمك إلى ،لكن صدودك جعلني أزهد فيك . لولا سميرة لكنت الآن حطاماً.. تحرك جلال قليلاً على الشاطئ وعاد إلى الدار . لم يكن قد غير من معالمه ، لا تزال اللحية الكثة والشارب الكثيف والشعر مصبوغاً . أسود داكن كأنه أعرابي . ودق الباب بقوة . ورأى أمامه سميرة . قال :

– تفضلي ..

وتصنع الوقار وأدار ظهره وهو يقول :

– ماذا تريدين ؟ ..

قالت باستفزاز :

–أنا لا أصدق أنك استأجرت الدار من جلال . أريدك أن تبرز لي عقد الإيجار .

دون أن يلتفت إليها وبصوت أجش قال :

– ومن أنت حتى تجبريني على ذلك ؟ ..

قالت : أنا المشرفة علي هذه الدار . تركها جلال عهدة في يدي .

جلس وهو يستخرج سيجارة من علبة سجائره :

– لم يقل لي .

قالت وهى تجلس بعيدة عنه ، وقد غرق بجسده في المقعد :

– لا أهمية أن يقول لك . اسمح لي أن أرى عقد الإيجار .

سألها مستفزاً :
- ما صلتك به ؟ ..
فكرت قليلاً ثم قالت :
- أنا المشرفة ..
قاطعها قائلاً : المشرفة .. أم ..
نهضت غاضبة وهى تقول : أم ماذا ؟ ..
قال وهو يشعل سيجارته : اهدئي.. اهدئى .. اجلسي إني أكثر شباباً من السيد جلال .. ما رأيك ؟ ..
هجمت عليه تريد أن تصفعه وهى تقول : آه .. يا كلب ..
حاولت أن تصفعه ، لكنه قفز وأمسك يدهـا بقـوة وشـدها إليـه ، وهـو يقـول : سوف أمتعك متعة لم تشهديها من قبل . صرخت وهى تقاومه وتحـاول أن تفك يده من قبضته : آه يا مجرم . لو كان في يدي سكين الآن لقتلتك . قـال وهـو يحاول أن يلمس بطرف شفتيه شفتيها :
- وتذهبين إلى السجن هدراً ..
غير أنها فكت يدها منه وهى تقول :
- سوف ..
- لا سوف ولا سوف .. سوف أقوم بإحضار العقد لكي تطمئني .
انتظري حتى أعود ..
كانت تريد أن تغادر البيت لكن الفضول ثبتها . وعاد إليها جلال وقد حلق شاربه ولحيته كما كان من قبل . وانتفضت قائلة : جلال .
سألها وهو يضمها إليه : كيف لم تعرفيني .. والأبله زوج خالتك قد تعرف على من الوهلة الأولى .
وتملصت منه غاضبة وتباعدت وهى تقول :
- أنا غاضبة منك ! ..
- لا تغضبي .. لقد عرفت أنك تصونين شرفي ..
قالت سميرة : أى شرف هذا .. ونحن نلتقي في الحرام .

قال جلال بحزم : لا تهتمي .. سوف نتزوج .. ونزيح الحرام إلى الأبد .

***

هل أخطأ حينما تزوج وزوجه - أم أولاده - لا تزال على ذمته؟ .. هل أخطأ عندما لم يخطرها بالأمر الجلل؟ .. إنها عافته منذ زمن وحاول معها الكثير لكنها كانت تتأبى . امتعضت في البداية ثم أبدت قرفها في النهاية . بل إنها بدأت مستسلمة ثم انتهت نافرة مشاكسة . غير راغبة ولو أنها لا تزال ترقد في الفراش بجانبه بيد أنها جثة هامدة . هل إذا ماتت الرغبة في قلب امرأة تعافي زوجها أم تستمر معه ما دامت جذوته متقدة أم يجب أن يطفئها ما دام بركانها همد ؟ ..إنها في هذه الحالة تشبه جماعة من الهنود تحرق الزوجة مع موت زوجها .. ولو أن الوضع معكوس حيث يحرق الزوج بنار الألم لأن دوافعها العاطفية ماتت ، كأنه هو الزوجه وهى الزوج .

لقد اتكل على الله ، وعقد على سميرة ، وترك صيدا إلى بيروت. كان يخشى أن يبلغ الأبله من جديد جيش لحد ، وتتحرك القوات الإسرائيلية من جديد لاعتقاله مرة أخرى ، ولا ينقذه في هذه المرة أحد . في المرة الأولى عرف الصيداوي بأمر اعتقاله فأبلغ ابنه الجسور ، ولكن في هذه المرة من سيبلغ . وباع داره في صيدا . وقال والسيارة تأخذه هو وزوجه الجديدة : وداعاً يا صيدا . وكادت تدمع عيناه ، لولا أن أمسك بحقيبته ودفعها في السيارة فكبح دموعه قبل أن تزرف لانشغاله بثقل الحقيبة وحملها .

***

فوجئت سميرة أن جلالاً يملك داراً أخرى في قلب بيروت . سألته: من أين تجلب هذه الأموال ؟ .. قال جلال :من التجارة . قالت : أى تجارة . أنا أراك عاطلاً . قال : إنها تجارة في فرنسا .

وجمت ذلك لأنها لا تعرف شيئاً ، إنها ما تزوجته إلا ستراً لعرضها المثلوم . كانت قد وثقت علاقتها حباً فيه ، ولكنها لم تتعمق في كنهه أبداً . وعليها من الآن فصاعداً أن تعرف كل شئ عنه .

قالت : إذاً أحك لي من أنت ومن أين أتيت . وإلى أين تأخذني ؟

قال ضاحكاً:
- ليس الآن . يجب أن تشربي العسل جرعة جرعة .. وإلا ماعت نفسك .
- أتقصد العسل أم السم ؟ ..

الفصل الرابع والعشرون
حمامات السوانا

كانت المائدة معدة ، عليها أصناف غزيرة من الطعام . والمضيفة اللبنانية تشرف على المائدة وزوجها يزدرد رشفات من كأس . بينما رشا كانت تحاول أن تساعد ربة البيت هاربة من ملاحقات سعيد لها بنظراته .وسعيد يتبادل الحديث مع المضيف . تعرفا على رشا وسعيد في رحلة لهما عند شاطئ الريفييرا . لما عاد إلى باريس سارع المضيف بدعوتهما على العشاء . قبل سعيد الدعوة على مضض . كان يعتقد أن في قلب كل رجل ذئباً يريد أن يلتهم المرأة الحمل . كان يجلس يراقب الرجل وهو يلتفت إلى رشا . ويبدي عدم اهتمامه بنظراته أو يظهر أنه غير دار بها . سأله :
- لقد انتهت الحرب منذ زمن ؟ ..
-نعم انتهت . لكني وجدت فرصة عمل في باريس لا يجوز أن استغني عنها . وإقامتي إقامة شرعية . وكذلك زوجتي وجدت فرصتها . إنها تعمل في السفارة البلجيكية ومرتبها محترم .
سأل سعيد باستغراب :
- كأنك لن تعود إلى لبنان ؟ ..
سأله بدوره :
- وهل ستعود إلى مصر ؟ ..
- هذا أمر لا شك فيه . أنا هنا في بعثة دراسية سوف تنتهي بحصولي على الدكتوراه . ولابد أن أعود لأني ملتزم أمام حكومة مصر بالعودة .

- وهل ستأخذ رشا معك ؟ ..

امتعض سعيد من سؤاله وقال :

- هذا أمر لا شك فيه أيضاً .

كان الحوار يدور باللهجة المصرية من جانب سعيد ، وباللهجة اللبنانية من جانب نسيم المضيف مع بعض الكلمات الفرنسية من حين لآخر .

كانت نادية - المضيفة - قد انتهت من إعداد المائدة بمساعدة رشا ، فدعتهما إليها .وقالت :

- مضى الآن علينا عشر سنوات لم نعد إلى لبنان . ولم أجد في هذه السنوات ألطف وأظرف من رشا.

قاطعها سعيد :

- وأنا ألست ظريفاً

قالت نادية ضاحكة :

- أنت درويش ومنظوم ..

هز سعيد رأسه مستغرباً وهو يتساءل :

- وما معنى ذلك ؟ ..

راحت نادية تشرح كلماتها بينما كانت أصوات الشوك والملاعق والسكاكين يسمعها الجميع . وسعيد يلاحظ أن الذئب نسيم يسترق النظر إلى رشا . " كأن عينيه منها " . تضايق لكنه كتم في نفسه .

•••

قال لها وهو يقود سيارتها عائدين إلى القصر .

- كانت عينه منك ذلك الرجل .

قالت رشا :

- لعل لغة العيون كانت سائدة بيننا .

هز كتفيه وهو يقول : لا أدري .

قالت غاضبة :

- لعلك لاحظت ما ضربت له من مواعيد بعيني .

قال سعيد ضجر .
ألا أستطيع أن اشرح الوضع
قالت غاضبة :
· أعتقد أنك الذي قبلت الدعوة . وأعتقد أنك الذي تعرفت عليه على شاطئ الريفييرا . وأعتقد أنك كنت تلاعبه بالمضرب على الشاطئ . ولم أتدخل في مسيرتك .
قال كأنما يحاول أن ينهي الموضوع .
- لم هذا كله ؟
سل نفسك كل رجل لا تثق فيه . كل رجل عندك خائن . كل رجل ينظر إلى . كل رجل يتمنى أن أكون له . ماذا عني ؟ .. أنا المتهمة دائماً ، كأنني أنا الذي أحرضه أنا الذي أغريه .
صعد الدم في وجه سعيد الأسمر . واحتقن . غير أنه كظم غيظه كأنه يحاول ألا يسمع شيئاً . أليس هو متجنيا عليها ؟ .. ما ذنبها إذا كان كل رجل ذئباً ؟ .. لكنها إذا خففت من التبرج فقد لا ينجذب إليها أحد ولا تجذب الأنظار .

•••

كانت الأم تشاهد فيلما سينمائيا من خلال التلفزيون ، حينما دخلا عليها . كانت رشا متجهمة الوجه . ألقت التحية ، ومضت إلى حجرتها. حاول سعيد أن يجلس قليلاً غير أنه لحق بها
قالت الأم لنفسها وهى تحس بما تعانيه ابنتها : يبدو يا ابنتي أنك تحظين بحظ أمك التعس . وراحت تلوم نفسها قائلة : أنت التي صنعت هذا الحظ بيدك . تديرين ظهرك للرجل وفي نفس الوقت تريدين أن يبقي في البيت .كيف يحدث ذلك ؟ ..ومن أين أحصل على الرغبة فيه وقد ماتت . ماتت منذ عرفت أن له علاقات بأخريات . لقد تلقيت تلك الصور المثيرة . صور تخصه . تكشف أنه يعشق أخريات . خصومه صوروه في أوضاع مخجلة . لكن ألا يجوز أن تكون هذه الصور مصطنعة . لم لا تواجهينه . أنا لا أجرؤ. سوف ينكر . إنني أحتاج

إلى رجل أثق به وأعطيه هذه الصور ليفحصها . لا بد أن يكون خبيراً ، لكن جسده العاري في الصور يؤكد أنه جسد جلال . ربما استطاع أعداؤه أن يصوره عارياً ثم اصطنعوا الصور له مع النساء الأخريات . يبدو أنهم يريدون خراب البيت ، حتى تضطرب أحواله فلا يستطيع أن ينافسهم ، وينشغل عنهم برأب الصدع في حياته العائلية وحياته الزوجية المضطرمة .إذاً أين التقطوا له هذه الصور .. صوره وهو عار . لا بد أن تكون في إحدى حمامات السوانا . إنه مغرم بها.

الفصل الخامس والعشرون

في السفر سبع فوائد

دخل عليها ، وهى تخلد للنوم ، وبادرها ، وابتسامات تتراقص على شفتيه :

- سأسافر إلى المغرب .

إنه مفرط في الابتسامات ، ولكنه لحز في صرف الأموال ، سألته:

- كم ستمضي هناك ؟ ..

قال رأفت شاكر بلا دقة :

- سنة .. سنتين . وقد تمتد إلى أربع . في السفر سبع فوائد .

- منها أنك سوف تتركني وحدي هنا .

- أنت مع أمك وأبيك . إذا أردت أن تأتي معي فأهلاً وسهلاً

- ودراستي ؟ ..

- إذاً تعالي في الإجازات الدراسية .

غطى الغضب وجهها ، وتحول إلى سخرية :

- وأنت هل ستضحي بهذه العيشة الهنية التي تعيشها ؟ ..

احتد وهو يخلع ثيابه . وداري احتداده وراء ملابسه وسأل :

- ماذا تقصدين ؟ ..

- هذه العيشة المجانية التي تعيشها ؟ ..
قال باستغراب وقد انتهي من ارتداء منامته :
- إن أحداً لم يطلب مني فرنكاً أساهم به بل لم يناقشني في طريقة الأنفاق .
سألته : وهل ستتركني دون أنفاق ؟ ..
كأنما فوجئ بالأمر . لم يكن يظن أنها ستطلب منه نفقة ، وهي تعيش في قصر والدها الفخم ، وتنعم في عزه ، هي الثرية أباً وتطلب من العبد الفقير مالاً . غير أنه ابتلع المفاجأة وقال :
- اطلبي .. تجدي ما يسرك .
وعلق على وجهه ابتسامة بلا مضمون ، ثم سرعان ما انقشعت .
قالت : وكم سيكون مرتبك ؟ ..
- ربما أربعة أضعاف ما تقضاه الآن هنا .
- هل هو عقد عمل أم انتداب ؟ ..
- انتداب طبعاً . أنت تعرفين أن الشركات في العالم الأول لا تفرط في التقنية بسهولة لذلك ترسل خبراءها إلى العالم الثالث لإدارة وتشغيل مصانعها في هذا العالم .. حتى تحتفظ بسر التقنية ، وفي نفس الوقت يتعذر على دول العالم الثالث استخلاصها أو بالأحرى يتعذر على المواطنين في هذا العالم أن يعرفوها أو يتمكنوا من إصلاح أى عطب فيها أو صيانتها . وتبقى سراً مغلقاً.
- وأنت تساهم في ذلك ؟ ..
- وماذا أفعل ؟ .. أذيع أسرار الشركة لدول العالم الثالث . ماذا سوف أكسب ؟ ..
قالت رانيا وهي تغطي وجهها بالملاءة :
- هذه مشكلتك !! ..
ولم يسمعها . طلب منها أن تعيد العبارة ، غير أنها تناومت .
سبحت في أفكار جديدة . ستكون متفرغة منذ الآن . ستصنع الشبكة بعد الأخرى لاصطياد الفريسة . إنها قوية أكثر من اللازم . لكن مع الأيام سوف تلين .. سوف ينصهر الحجر ويذوب في يوم قادم .

•••

نب الخدم المائدة في الصباح .وجاءت دينا في البداية ثم رشا ورانيا ثم بعد ذلك سعيد ورأفت وأخير حضر سام وهو يتمطى قالت رانيا تزف الخبر إلى الأسرة :

سيسافر رأفت إلى مراكش

تضايق رأفت كأنه لا يريد أن يعرف أحد تحركاته .وسمعها تستطرد

قد يبقى هناك أربع سنوات

سألت دينا وماذا ستفعلين ؟

قالت رانيا سأكون معه في الإجازات

همست رشا لنفسها سوف تتالين على يديه ما لم تناليه ابدا

انتهى إفطار الصباح . ولم ينطق رأفت بشيء كأنما لا يريد أن يشرك أحد في توجهاته . رغم انه مشهور انه إذا تكلم لا يتوقف قطار سريع يصدر صوتا مستمرا لا ينقطع يبدو أنه اذا تعلق الأمر بشخصه لزم الصمت . صنع منه جدارا عاليا وإذا تعلق الأمر بشيء اخر هدم جدار الصمت . وتدفق نهر الكلام بلا حدود .

جلست دينا تقرأ جريدة الصباح . بينما انصرفت رشا إلى عملها . ودينا إلى جامعتها . وهى في كلية تختلف عن كليه سعيد . حيث يذهب في الصباح وفي المساء يعمل بعض الوقت وكذلك تأهب رأفت في الذهاب إلى عمله . وهو يهمس لنفسه متى أغادر هذا السجن ؟ كان كبرياء الأم يغيظه لم تحاول أن تسأله عن سفره كأنه غير موجود وسألت ابنتها كأنما تسألها عن أمر يتعلق بشخص غريب يكن لها كراهيه فطرية لا يعرف مصدرها . كأنما يقرأ في عينيها أنها تمن عليه بالنعمة وهو لا يشكر إنه سجين في قصر النعمة وحان الوقت أن يتحرر . حقا استمرأ العيشة المجانية لكن اذا كانت مخضبة بالمن فلتذهب إلى الجحيم

وما كادت تمر ساعة حتى جاءت الخادم تعلنها بقدوم صديقة لبنانية تقيم في باريس منذ الحرب الطائفية في لبنان دخلت عليها سوزان غادة متقدمة في

السن ، لكن الجمال لـم يفارقها . صفراء الشعر دون صبغة . زرقاء العينين دون عدسات صناعية لاصقة . جسدها ينفس حرارة . وصدرها يبرز الأنوثة في كل خطواتها . عانقتها بشدة وقالت دينا:

- غبت على طويلاً .

ضحكت وقالت :

- كأني زوجك .

قالت دينا في حسرة :

- أين هذا الزوج ؟ .. لقد اختفى . كان يغيب أسبوعاً أو أسبوعين، أما الآن فقد مر عليه شهران .

- ألا تعرفين أين ذهب ؟ ..

- لا .. ولا حتى ولده إبراهيم . موضع سره

- غريبة .

•••

خرجت دينا عند العصر متجهة إلى سيد أرمان مصور معروف له علاقات وثيقة بالأسرة . وهو الذي صور فرحي رشا ورانيا . تلكما الفرحان اللذين ما كادا ينتهيان حتى غادر جلال البلاد كأنه لن يعود . لم يصبر حتى يشاهد حياة ابنتيه مع زوجيهما ، إنما ترك الأمور تجري في طريق ، وراح هو يجري في طريق آخر .

قابلت دينا سيد ارمان ، ووضعت في يده الصور التي تلقتها بالبريد منذ زمن بعيد تلك الصور التي قتلت في نفسها الرغبة في زوجها ولو تمثيلاً . وصنعت خندقاً ليس له جسر يوصل بين ضفتيه.

قالت :

- أريد منك بسرية تامة أن تعرف لي ما إذا كانت هذه الصور حقيقية أم اصطناعية .

نظر سيد ارمان بدهشة إلى الصور . وراح يقلب فيها ويتعمق في تقنيتها ثم قال :

- هل يمكن أن تتركيها لي عدة أيام لفحصها . سوف اتصل بك في القصر .. وأعلمك بالهاتف .

الفصل السادس والعشرون
الاطمئنان والشك

اتخذ القرار واصبح ينفذه . لزم بيروت بجوار الزوج الجديدة . كان الفرق بينهما سبعة عشر عاماً. هي تدنو من الثلاثين وهو يبتعد عن السادسة والخمسين . ولكنها قبلت أن تتزوجه بعد عشق دام سنوات. كانت هناك أخريات في حياته لكنها الوحيدة التي شدته بعد أن عافته زوجه . وكانت الأخريات في بلاد خارج فرنسا . لم يكن يقيم علاقات داخلها ، كان يشبه نفسه بالعاهرة التي لا تقيم علاقات مع سكان البناية التي تقيم فيها . كان يضحك من هذا التشبيه ، لكنه يرد على نفسه : ألست كذلك ؟ .. ألست رجلاً عاهراً ؟ .. لكنه تاب . قرر أن يعود إلى حصن الفضيلة ، ويتزوج سميرة ولا ينظر إلى أخرى . حتى هؤلاء اللاتي يقمن خارج فرنسا لن يعود إليهن ، لأنه قرر اعتزال العمل . تكفيه هذه الودائع في البنوك الفرنسية والسويسرية حتى يهنأ بقية حياته . وها هو ابنه إبراهيم يدير مؤسسته ومؤسسة أمه التي ورثتها عن أبيها . كان الفاصل بين المؤسستين أن الأولى تتاجر في السلاح خارج فرنسا سراً ، والثانية تتاجر في السلاح داخلها علانية . ولكل ميزانيته ولكل أعماله ولكل موظفيه ..

يذكر أن كثيرات حاولن إقامة علاقات بينه وبينهن داخل فرنسا ، من بينهن هذه اللبنانية المتفرنسة سوزان ، صديقة زوجه الحميمة . ظلت تلاحقه . وعرضت عليه نفسها ، ولكنه صدها . رفض أن يظهر بمظهر الخائن داخل الديار . ولو أنه كان خائناً بالفعل خارج الحدود . ولو لاحقته سوزان إلى الخارج واستقرت في ذلك الخارج لكان قد التهمها ، فإن أنوثتها طاغية . كيف

قاومها ؟ .. لا يدري . المهم أنها كانت تدعي صداقتها بدينا الساذجة وكانت تضمر في نفسها غرضاً آخر .

***

سألته سميرة ، وهما يتعشيان في شرفة داره في بيروت :

– هل ستعود إلى فرنسا ؟ ..

قال : لا .. ليس لي مصلحة هناك .

– وأولادك ؟ ..

– أولادي كبروا . وكل واحد يعرف طريقه .

– وزوجتك ؟ ..

– عافتني وعافيتها .

– كيف ؟ ..

– هكذا حدث من ناحيتها فجأة . ووجدت أن أتخذ نفس المسار بعد محاولات فاشلة .

– وكيف سيتسنى لنا العيش ؟ ..

– هل تشكين من شئ ؟ .. هل ينقص أكل .. لبس .. فسح ؟ ..

– لا .. لا .. أقصد . أقصد فقط ألن يحدث أن تنضب هذه الموارد..

– لا .. لا تنزعجي . إن لي ودائع في فرنسا وسويسرا.. تجعلني أعيش عيشة هنيئة . أما مؤسستي في فرنسا فيديرها ابني .. وهو يعرف حسابي الجاري في فرنسا وكم يضع فيه كل شهر . إن بطاقة الصرف التي أحملها تجعلني أتمتع دون أن أحمل هماً .

سكتت ، فسألها :

– هل أطمأننت .

– وأى أطمئنان .

***

دق جرس الهاتف ، فأسرع يلتقطه . وسمع صوت إبراهيم يكلمه:

– السلام عليكم يا والدي العزيز .

- أهلاً .. إبراهيم .
- هل استمرأت العيش في لبنان ؟ ..
- هنا أجد نفسي .
- ومؤسساتك .. هل ستتركها ؟ ..
- البركة فيك يا إبراهيم .
- ووالدتي .. هل اعتزلتها ؟ ..
- إنها هي التي اعتزلتني .. فلم أجد بداً من اعتزالها . أتطيق أن تعتزلك زوجتك وتستمر تودها .
- غريبة لم ألحظ ذلك .
- كيف تلاحظ .. هذه أمور سرية لا يجوز أن يحدث إفشاؤها .
- إذاً .. فأنت باق في لبنان ولن تأتي إلى فرنسا. والأعمال والصفقات ؟ ..
- البركة فيك يا إبراهيم . أرباح مؤسسة أمك ضعها في حسابها . وأرباح مؤسستي ضع العشر في حسابي والباقي وزعه عليك وعلى أخوتك وأمك .
- ألن تسأل عنهم ؟
- - كيف حالهم ؟ ..
- حال لا يسر . رشا تتشاجر دائماً مع زوجها . ورانيا تركها زوجها وسافر إلى المغرب ليعمل هناك . ربما حال بسام على ما يرام ، فقد اشتغل مع شركة فرنسية لإنتاج أفلام الكرتون . أما أنا فقد تزوجت وأعيش في شقتي .
- تزوجت .. مبروك .

•••

دخل إبراهيم على أمه ، وهي جالسة تطالع مجلة فرنسية ثقافية . ولما جلس بعد قبلات طويلة ، سألته :

-ألا توجد أخبار عن أبيك ؟ ..

قال بوضوح :

- جئت اليوم وحدي لأناقش وضعه . لم أحضر عائشة معي حتى تكون مناقشة الأمور بلا حرج .

اضطربت الأم وسألت :
– ماذا حدث ؟ ..
قال : إنه قال لي إنه اعتزلك لما اعتزلته . فلم حدث ذلك ؟ ..
غاض لون وجهها ، فليس مثل هذه الأمور المحرجة الشائكة يمكن أن يخوض فيها ابنها معها .
فتحت حقيبتها التي تلازمها في تنقلاتها داخل القصر ، وسلمته مظروفاً به الصور الفاضحة ، وقالت : أنظر .
لما تفحص الصور ، قال : إن مرسل هذه الصور واضح أنه يريد أن يخرب البيت .
– لما وصلتني هذه الصور لم أستطع أن أكون لأبيك . أخيراً بعد طول عذاب قررت أن أعرف الحقيقة .
– ماذا وجدت ؟ ..
– ذهبت إلى سيد أرمان لأعرف حقيقة هذه الصور .
– ماذا قال لك ؟ ..
– قال إنها صور مصطنعة . ولو أن صنعتها متقنة . إن هذه الأوضاع التي في الصور أوضاع حقيقية لكن بطلها رجل آخر .
– من تظنين اقترف هذا ؟ ..
– واحد من المنافسين يريد خراب البيت .
– أو واحدة من صديقاتك ، معجبة بأبي وأمواله . تريد تدمير حياتكما الزوجية توطئة لاصطياده .
شعرت دينا أن الشك دخل قلبها ،وهتفت :
– واحدة من صديقاتي .

الفصل السابع والعشرون

الحرب بين الذئاب والحملان

انسحب بسام من الموقف المتفجر . لا يريد أن يتدخل بين رشا وسعيد ، أختـه وزوجها . فهي التي أشـارت إلـى هذا الرجـل ، وأصـرت علـى الـزواج منـه . وسبق أن قيل لها إنه مصري ، وسوف يتزوجها زواجاً مؤقتاً ، وقـد يـترك فـي أحشائها جنيناً ويمضي إلى بلده، لكنها أصرت عليـه .وبـالفعل بـذر البـذرة وهـا هي تنمو ، وترتفع بطنها وتنتفخ ، واستعر الشجار بينهما على موضوعات جادة من ناحيته وتافهة من ناحيتها .

تركهما يتشاجران – رشا وسعيد – ومضى إلى معمله . كـان الشـجار بسـبب مقابلتها لنسيم في مكتبه . كانت تسعى أن تعمل رشا في الشركة التي يعمل بهـا نسيم . عرض عليها عملاً مقابل مبلغ معين يفوق ما تتقضاه من شركتها الحالية لكن مع زيادة ساعات العمل . وأعترض سعيد أنها ذهبت إليـه .ورفضـت رشـا منطقه وقالت : أنا لم أذهب إليـه فـي بيتـه يـا متحجـر الفكـر ، أنـا ذهبـت إلـي الشركة التي يعمل بها مديراً لشئونها الإدارية .لكن سعيد رفـض منطقهـا وقـال: إن عملك الحالي مجز . وسوف يكون متفقاً مـع كونـك أمـاً فـي المستقبل . إن العمل الجديد لن يساعدك على رعاية أطفالك .

كـانت الأم دينـا تسـمع وتتـأمل المتشـاجرين ، وتحـاول أن تنحـاز لأبنتهـا فـلا تستطيع ، كان منطق سعيد أقوى من منطقها .تحاول تهدئة سعيد غير أنـه كـان يلقي الحطب في نار انشجار فتتقد أكثر مما يجب ، ولـو أنـه لـم ينطـق كلمـة لا عفة فيها أو نابية .

كانت رانيا تترصد الشجار دون أن تتدخل . تريد أن يتم انفصام العلاقة بيـن أختها ومعشوقها . لقد عشقت سعيداً من بعيد ، لم تستنكر توجه قلبها إلـى زوج أختها . العواطف ليـس لهـا ضـابط ولا تتمكـن الإرادة مـن التحكم فيهـا ، لذلـك آثرت أن تكون مستمعة إلى المساجلات دون أن تدلي برأي عسى أن تطلب منه الطلاق فيستجيب على الفور ويطلق الكلمة الحاسمة .وبعد ذلك يكون سـعيد لهـا . لعله الأن متخوف من أن يقدم حبـه لهـا علـى طبـق مـن ذهـب ، لأنـه زوج

أختها . أما حين يصبح حراً لا يقيده قيد الشريعة التي تحول دون الجمع بين الأختين ، فسوف يطلق عنان اللسان واليدين وكل شئ فيه . لكنك يا فتاة متزوجة . متزوجة من ذلك البخيل الذي لا يعرف له عادة إلا جمع المال . سوف أطلب منه في هذه الحالة الطلاق . لكن كيف تضمنين أن سعيداً يحبك . عيناه . لمساته . نظراته . كلها تنطق كلها تدل . أنفاسه القريبة . مواقفه التي يحاول فيها أن ينفرد بها . هذره ومرحه ومحاولته الإمساك بيده ليضربني بسبب شقاوتي . كل تلك أدلة لا تقبل النقض . ألا تخجل وأنت تفكرين بهذه الطريقة في زوج أختك ؟ .. لا .. من أجل ذلك كان حديث النفس مجهول لا يدركه أحد . وكيف ستقبل العائلة أن تزفي إلى طليق أختك ؟ ..

***

لم ينشغل بسام بالشجار الذي يجري خارج معمله ، إنما انشغل بحرب يونيه . يريد أن تصور من خلال الذئاب والحملان مرة أخري . سوف يسمي الحلقات الجديدة الحرب بين الذئاب والحملان. لن يجعلها حلقة واحدة سوف تكون أكثر من حلقة ، تبدأ مع إشراق الشمس والحملان سادرة . ترعى . وطائراتها مستكنة على المطارات . والذئاب تهاجم بعنف . تحطم الطائرات والأسلحة وتفجر ذخائر الحملان . سوف لن يتنبه الناقد اليهودي إلى أن عمله يشير إلى حرب يونيه . إنما سيري الذئاب تطارد الحملان ، والحملان تدافع عن أرضها . فما الفرق بين ذلك وكرتون القط والفأر حيث القط يجري وراء الفأر ليلتهمه ، والفأر يسرع ليختبئ . ويحاول أن ينال من القط في النهاية ، والقط يصارعه ، وينتصر الفأر في النهاية. لكن الفرق بين الكرتونين أن الأول يجري بين فردين أما الثاني فيجري بين جماعتين وفيه مضمون الحروب وليس المطاردة فقط .

في الحلقات الأولي ستنتصر الذئاب على الحملان ، وفي الحلقات الأخيرة سوف تنتصر الحملان على الذئاب . حيث سيكون التعبير في هذه الحلقات عن نصر أكتوبر . ولن يشير إلى ذلك إنما هي حرب عادية بين الذئاب والحملان ، تنتصر فيها الحملان في نهايتها على الذئاب .

•••

تذكر وهو يستعد للعمل أن قضية جانيت سوف تنظر ذلك اليوم . ارتدى ملابسه على عجل ، وقاد سيارته بسرعة فائقة حتى يصل إلى المحكمة قبل بدء القضية . كانت القضية تأجلت كثيراً لأن رفائييل لم يحضر جلسة من الجلسات السابقة . وقدمت جانيت مستندات أنه مدمن . وحضر بعض معارفها من بلدتها في إقليم نورماندي وشهدوا أمام القاضي أن رفائييل مدمن . بل قام بعض المصورين المحترفين بتصويره وهو في الحانة يحتسي الخمر ويشم الهيروين .

وقف بسام بعيداً عن جانيت . يسمع القاضي وهو ينطق الحكم : التفريق بين الزوجين . شعرت جانيت بغبطة تجتاح كل بدنها . وتبسم بسام في هدوء . الآن يمكن أن تكون له جانيت .

وشكرت محاميها ذلك الذي دلها عليه بسام . ومشت في دهليز المحكمة إلى باب الخروج . وبسام يتبعها مبتسماً لا تراه لأنه يسير خلفها . كانت تتأمل مستقبل حياتها . لقد تركت الشركة التي كانت تعمل فيها ، واختفى الذئب من حياتها بعد أن عرف أنها جادة ويمكن أن تبلغ عنه الشرطة ، ورفعت دعوى للمطالبة بالتطليق من زوجها، وغيرت محل سكنها . رفضت أن تعيش في قصر والد بسام . رأت أن ما فيه من بشر كاف ، ومن الواجب ألا تثقل على أهل القصر . غيرت سكنها حتى لا يطاردها الذئب في الشركة ، ولو أنها وجدت مشقة كبيرة حتى حصلت على تلك الحجرة الصغيرة المستقلة في بناية كبيرة بسعر معقول .

سمعت شخصاً تعرف صوته جيداً يقول :

– هل تريدين أن أصلك بك إلى جهة معينة ؟ ..

الفصل الثامن والعشرون

رحلة عمل

نزل إلى مطار سراييفو ، أذهله الحال المزري الذي اصبح عليه المطار . كانت الاتصالات تتم فيما قبل في النمسا أو ألمانيا أو بلجيكا، لكنه جاء ذلك اليوم يجري الاتصالات في سراييفو نفسها عاصمة البوسنة والهرسك . ترك وراءه في فرنسا عائشة تدير شئون المؤسسة يساعدها صديقه ألبير وهذا الأخير يدير مؤسسة أمه. بزت هذه المرأة في العمل ، وكان يظن أنه يغمرها بفضله . فإذا بها ترد الفضل مرات عديدة ، لذلك استمسك بها عاملة وزوجة ولم يفرط فيها .

استقبله مندوب وزارة الدفاع استقبالاً حاراً سرياً . وأخذه في سيارة متهالكة القوى ، لكنها تحملتهما هما والسائق . وبسرعة هادئة أو متوسطة الدرجة سار السائق . وشاهد إبراهيم الخراب في كل مكان . بيوت محطمة . وأخرى مائلة كأنها تئن من الصمود . وبيوت رشقت في حوائطها الرصاصات ، أو احترقت دوراً منها أو سقطت بعضها . والطرق المعبدة صارت تشكو من الحفر والثغرات.

دخلا معاً الفندق الكئيب ، بيد أنه طفق يحدث نفسه أن عليه أن يتحمل كآبة المنظر ، فقد خرجت سراييفو من الحرب محطمة . والكآبة تلازم الحطام . عما قريب سوف تعود جميلة .

لم يفكر أن يخرج ليلاً ، لذلك أخذته الهواجس يميناً وشمالاً . فكر في أخته رشا التي تئن ولا تشكو . يسري الألم في ضلوعها ولا تنطق بكلمة أو تصدر عنها آهة . لقد زادت غيرة زوجها وحاصرها من كل ناحية لدرجة أنه كان يتنصت على حوارها مع أى رجل أو فتاة . كان يشك في سلوكها ولو أنه لم يعلن ذلك ، لكن تصرفاته كانت تفيض بملامح الشك . أما أخته رانيا فقد توجه زوجها إلى المغرب وها هو يعيش هناك . بخيل حتى في كتابة الخطابات ويجد مشقة في أن يهاتفها . بل إنه لم يفكر أن يرسل لها حوالة مصرفية بمبلغ للنفقة ، ما دامت تعيش في بيت الملياردير والدها . يبدو أن المال في جيبه سوف

ينقص لو اتخذ فعلاً معيناً لذلك لا يتخذه حتى لا يضر جيبه . ولعله يقول لنفسه : إنها لا تحتاج . ما هؤلاء الرجال؟ .. ذئاب في ثياب بشر ، يمتصون دم الضحايا ويأكلون لحومهم ويقرقشون عظامهم ويتركونهم فتاتاً .

في الصباح استقبل مندوبي وزارة الدفاع وطفقوا يتحدثون ويتناقشون في احتياجاتهم من السلاح . لا يجوز أن تثق الأمم في جاراتها الباغيات . يجب أن تتحصن . ومادامت الجارة الباغية لا تملك طائرات فإن خير التحصين هو سلاح المشاة . ويمكن تهريبه من خلال أقفاص التفاح والبرتقال والخوخ والعنب الفرنسية . والبضاعة مدفوع ثمنها مقابل السلاح والفواكه .

قال إبراهيم : نحن مسلمون ويجب أن نتآزر مهما كانت القوانين الدولية .

وسرح بفكره قليلاً ، وهو يشرب كوباً من الشاي . لم لا يحاول أبو عمار تسريب السلاح إلى الأراضي الفلسطينية التي استردها ، ويخبؤه في مخازن تحت الأرض . مثلما فعلت العصابات الصهيونية قبل استعمارها فلسطين وقبل نشوء إسرائيل . يبدو أن الحصار والرقابة عليه وعلى شعبه قويتان ورهيبتان ، بحيث لن يتسنى تهريب السلاح . ولكن أعتقد أن هناك مسارب كثيرة يمكن أن تسهل عمليات التهريب ، بيد أن السلاح سوف يرتفع سعره إزاء ما سيصادف المهربون من مخاطر . لكن ذلك السلاح المهرب هو عدة المستقبل وعماد الاستقلال وذخيرة لعودة الأرض المنهوبة . هم يشترون وأنت تبيع . نعم . لكن عملي ليس فيه جريمة أخلاقية أو خيانة لأحد . أنا أساعد المظلومين ، وأحاول قهر الظالمين .

***

طارت الطائرة إلى تركيا . ومن هناك استقل طائرة أخرى إلى بيروت . كان يريد أن يقابل والده الذي هجرهم ، ويطلعه على الصور التي تلقتها أمه منذ ثلاث سنوات . وشكت بناء عليها في سلوك أبيه ، وعزفت عنه لأنها اعتقدت أنه يخونها . وإذا بها تفاجأ أنها صور مزيفة . هكذا أثبت لها سيد أرمان المصور ذلك .

أز الجرس في البناية التي يعرفها جيداً ، فطالما جاء إلى هذه الشقة ومعه والده عندما كان يدربه على العمل . وفتحت الباب امرأة في مقتبل العمر جميلة . لم يأخذه تفكيره إلى أنها خادم . ولو أنها لو كانت خادماً فإن هذا يليق بملياردير مثل أبيه . إنها مهندمة متبرجة تبدو مكشوفة الذراعين كأنها عروس خرجت لتوها من حجرة النوم. إن ماله يساعده على اكتناز الوجوه الحسنة والحظوة بالنساء الحسناوات ، لكن تفكيره ذهب إلى أنها إما عشيقة وإما زوج جديدة .

سألها : هل الأستاذ جلال موجود ؟ ..

لاحت له فكرة أن أباه باع الشقة ، وتملك أخرى حتى لا يعرف الإسرائيليون مكانه . أما الهاتف فقد نقله من هذه الشقة إلى الشقة بنفس الرقم ، لكنه سمعها تقول : تفضل .. من نقول له ؟ ..

قال وهو يدخل : قولي له .. إبراهيم .

لم تكن سميرة تظن أن هذا الإبراهيم ابن زوجها . يكاد تدنو سنه من عمرها . لكنها كانت تعرف أن له زوجه وأن له ابنين وبنتين . وتمنت أن يكون لها ولد منه ، وما كان عليها إلا أن تنتظر . أما أن يكون أحد الأبناء يساويها سناً فذلك مدهش . لقد اصبح جلال هو كل ما لها في هذه الدنيا ، بعد أن دكت القوات الإسرائيلية في يوم من الأيام منزل أسرتها ، وقضت عليهم ،أنقذت بسبب غيابها عن الدار وعاشت مشردة دهراً وآوتها خالتها وتعرفت بعد ذلك بجلال وهو يزور خالتها فكانت له . أنقذها من الفقر وصار يصرف عليها على أن لا تكون لأحد غيره . وقد أخلصت له بالفعل ، ولم يقطع أنفاقه عليها حتى وهو خارج لبنان ، وصدق الرجل في وعده وتزوجها رغم أن عمره من عمر أبيها المرحوم .

خرج الأب ليستقبل ولده بالأحضان . قال : أهكذا يا أبي تختفي من حياتنا . سمعت كلمة " أبي " ، وهى تدخل إلى المطبخ ، فشهقت . إن جلال لا بد أن يكون تزوج مبكراً أو أنه عجوز لم يصدق في إعلان سنه . حتى لو كان عجوزاً وفي سن أبي فلن أفرط فيه ، ولن أسمح لأحد أن يخطفه مني .

سمعت الأب يقول لأبنه : أتستطيع أن تعيش مع واحدة تدير لك ظهرها ؟ ..
– هناك أسباب ..
– وما هي هذه الأسباب ؟ ..
أخرج من جيبه ظرفاً به الصور الفاضحة وسلمها له وهو يقول : تأمل .. لتحكم ..
فتح المظروف . وإذا به يفاجأ بالصور العارية .
قال إبراهيم : مر على هذه الصور ثلاث سنوات . تعذبت فيها الكفاية ، لكنها كانت لا تشك فيك ولا تستطيع أن تقترب منك . لقد خلقت هذه الصور حاجزاً بينك وبين أمي . حتى هداها تفكيرها ...
قاطعه وهو يقول :هل هذا جسدي .. البلهاء ؟ ..
أردف إبراهيم قائلاً :
– ذلك ما قاله سيد أرمان ، لكن في بعض الصور ظاهر أنه جسدك . يبدو أن أحدهم صورك وأنت في حمام من حمامات السونا دون أن تدري . أو أنت تصطاف على شاطئ الريفييرا.
سأل جلال في غيظ :
– من يكون ذلك السافل ؟ ..

الفصل التاسع والعشرون
ضاع الوطن

لم يفكر بسام أن يتزوج جانيت بعد أن نالت حريتها . كان لا يريد أن يتقيد بامرأة ، ولم يكن الأمر يضجه فهو لم يكن زير نساء . وما دامت تقبل علاقة الصداقة بينهما ، فليقبلها هو الآخر . وكان يسألها فيما مضى الارتباط لمجرد جس النبض والاتجاه وكان يجد منها الصدود وعرف فيما بعد السبب . وكان يعتقد أنهما لو تزوجا ، فسوف تكون هناك منازعات مستمرة بينهما خاصة لو أنجبا . منازعات حول ديانة الأطفال وتعليمهم وأساليب رعايتهم . إنني ابتعد

عن وجع الدموع وافضل أن اعيش حراً لا يملك ثروة مثل أبيه حتى يتعطش لإنجاب ولد يرثه من بعده أما ثروة أبيه فقد تؤول إليه أو لا تؤول ، فقد يموت قبل أبيه وقد يبدد الأب ثروته قبل أن يموت ويتركهم بلا سند أو مأوى

أما لو ورث بعض الملايين ، ففي هذه الحالة يمكن أن يفكر في الاقتران بواحدة والإنجاب ،لكنه موقن أنها لن تكون جانيت .إن علاقته بها علاقة غريبة حقا علاقة عشيقة لن تكون زوجة . أو علاقة عمل بين مخرج وسيناريست .

التفت إلى العمل وطلق الفكر الشخصي . بدأ يراجع الفيلم الكرتوني الجديد . وكان عن الذئاب والحملان أيضا سماه غدر الذئاب . وكان يحاول فيه أن يبين إرهاصات حرب يونيه ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل . وقد أظهر شعب إسرائيل في صورة الذئاب وأظهر شعب مصر في صورة الحملان ، وعلى رأسهم كبش كبير لكن لم يحاول أن يلفت نظر المشاهد إلى أن الحرب التي تدور رحاها في الفيلم لها علاقة بالواقع . فقد كان يعرف أن ذلك اليهودي عضو مجلس الإدارة والناقد السينمائي له بالمرصاد .

كان الفيلم يدور حول أرض يملكها الحملان وعلى رأسهم كبش كبير . وكانت سفن الذئاب تعبر مضيقا تابعا للحملان . ولا يستطيع الكبش الكبير أن يمنع مرور السفن .فكان يغلي ويزبد ويزأر كأنه أسد مطعون . كان يحول بين الحملان والذئاب قوات الأمم الحيوانية. ترتدي الزي الرسمي لها ، وتذهب وتجئ وتسمح بمرور سفن الذئاب عبر المضيق ، وتحول دون اندلاع الحرب بين الذئاب والحملان او هجوم الحملان عليها

وتول الذئب الكبير بسبب أن المياه سوف تنقص في مملكة الذئاب. تناقش خبراء الذئاب حول الأوضاع ، فقرروا سحب المياه من نهر الدولة المجاورة وهي من دول الحملان وبينما يقيم الذئاب توصيلات لسحب المياه من النهر ، كانت الحملان تقيم السدود على النهر لوقف تدفقه .

بدأت المناوشات بين الذئاب والحملان في الشمال والجنوب والشرق . ولم يكن هناك شئ في الغرب . كان البحر يحول دون الذئاب والحملان .

اجتمعت الذئاب والحملان للتفاوض على وقف القتال برعاية وسيط من دولة الأفيال وكان الموقف ضاحكا إذ جلس المتفاوضان على مائدتين متباعدتين يحاول مندوب دولة الأفيال إعادة الهدوء والسلام بينهما الذئاب توافق والحملان توافق . غير أن الذئاب سرعان ما تنقض الاتفاق تنقض على الحملان ويتبادلان إطلاق النار وتسقط طائرات الحملان في الشمال بينما الذئاب تشرب كؤوس النصر على الحملان ويذيع الدب بيانا يندد فيه بالعدوان الذئبي على دولة الحملان ويطالبهم بالتروي . حتى لا تضيع مصالحهم الحيوية وتنتهي مملكتهم إلى الفناء

لم تهتم الذئاب بأي بيان وتجمعت جيوشها حول أراضي الحملان في الشمال والجنوب تفقد الذئب الكبير الذئب الأعور الجنود وطالبهم بعد استعراض الصفوف أن يكونوا يقظين لأي عدوان طلب الدب الكبش الكبير هاتفيا وقال له أحذر هناك عدوانا على الشمال هاج الكبش الكبير وأرسل مندوبا إلى الشمال ليتفقد الأوضاع. وفي القطاع الشمالي من مملكة الحملان . كان يتسلل بعض الفدائيين من الحملان لتخريب ثكنات الذئاب الواقعة بقطاعها وقال الذئب الكبير في اجتماع مجلس الوزراء إنه يجب السيطرة على الأراضي المتاخمة لمملكة الذئاب في الشمال ودب النشاط في معسكرات الذئاب وبدأ الهجوم السافر في الفجر . وتحركت الذئاب وهي تعوي وتوقع الكبش الكبير أن الذئاب سوف تخرق السلام ولن تنصاع إلى اتفاق الهدنة بينهما ، فالسلام بين الذئاب والحملان سلام زائف وكاذب وغير مستقر

حشدت مملكة الحملان في الجنوب جيشها ونشرته في الصحراء القريبة من مملكة الذئاب المتاخمة لعاصمة الحملان وصار جنود الحملان يترقبون أي هجوم من الذئاب . تقوم الذئاب بعرض عسكري أمام أعين الحملان سواء في الجنوب أو الشمال أو الغرب.

وطالب الكبش الكبير رحيل قوات الأمم الحيوانية من حراسة المضيق الذي تمر به سفن الذئاب رغبة في كسر شوكتهم رفض رئيس القوات المرابطة على الحدود الأمر وطلب أن يأتيه الأمر من أمين عام الأمم الحيوانية . وطلب

الكبش الكبير ذلك من ذلك الأمين فانسحبت القوات الدولية بعد أن أمر بذلك . وبدأت الجيوش في الجنوب حصارها حول مملكة الذئاب بمنع سفن الذئاب من المرور عبر المضيق . وكانت تمر به زهاء إحدى عشرة سنة .

الكبش الكبير قفل المضيق أمام سفن التجارة الخاصة بالذئاب . وقف الدب الكبير يعلن من على منبره أنه يساند الكبش الكبير في تصرفه . وطالب الفيل مملكة الحملان بضبط النفس وعدم أجراء أي تحركات عسكرية ضد مملكة الذئاب . تقوم الذئاب بطلعة طيران. تكتسح بها مطارات الحملان . ويقف الكبش الكبير على الأنقاض يشد قرونه ودموعه تنهمر ، وهو يقول : ضاع الوطن

•••

صمم بسام أن يتمهل في تسليم أفلام الذئاب والحملان حتى ينتهي من إعداد كثير منها : كان يريد أن يحول كل يوم من حرب يونيه ١٩٦٧ فيلماً قصيراً وكانت لديه المراجع التي تساعده على ذلك . وبذلك لا يشعر ذلك اليهودي أن الأمر يتعلق بالصراع بين إسرائيل والعرب . إنما هي مجرد أفلام كرتونية تنعش حب الأطفال للمعارك الطاحنة .

الفصل الثلاثون
لن أعتذر

رفعت عائشة السماعة وسألت : من ؟ .. أجابت دينا : أريد إبراهيم .. أين هو ؟ قالت عائشة : إنه مسافر .. سألت دينا : ومن أنت ؟ .. سألت عائشة : ومن تكونين أنت ؟ .. احتدت دينا وقالت : أنا أمه . قالت عائشة وهى تبتسم كأنما الابتسامة ستنتقل إليها عبر الهاتف فتهدأ . أو تخفف قليلاً من حدتها . : أهلاً سيدة دينا ..قاطعتها وسألتها : من أنت ؟ .. كانت لا تزال اللهجة الغاضبة تلون صوتها . قالت عائشة تحاول ألا تغضب : أنا عائشة زوجة إبراهيم . سألتها : وماذا تفعلين عندك ؟ .. قالت : أعمل .. سألتها ولا تزال تتفجر غضباً

ومر سمح لك بالعمل في مؤسستي ؟ قالت وهي تحاول أن تتماسك

إبراهيم هو الذي عينني ضربت السماعة على التها بشدة وامرت السائق بتجهيز السيارة للخروج توجهت على الفور داخل باريس حيث تقبع المؤسسة التي تملكها تلك التي ورثتها عن ابيها وظل زوجها يديرها وانتقلت الإدارة إلى ابنها لما أختفي الزوج لم تطأها قدماها الا قليلا سواء في حياة أبيها أو في حياة زوجها كل ما يصلها بها هو ما تأخده من مال

دخلت متهجمة على مكتب عائشة في الطابق الثاني من مبنى المؤسسة مضى زمن طويل لم أدخلها ولم يكن به طابق ثان وشكت أنها تاهت نفذت من الباب وقالت

هنا لا يعين في مؤسستي احد إلا بإذني

أجابت عائشة دون أن تنهض لتحيتها وهي تتماسك حتى لا تتهور من الغضب

أنا لا أعمل في مؤسستك

لا تدري لم تكره هذه الصعلوكة ابسبب انها ليست من ذات المستوى العائلي والتقطها إبراهيم من الطريق وتزوجها واستطردت عائشة تقول

أنا أعمل في مؤسسة جلال للتصدير والاستيراد أما مؤسستك فهي في الطابق الأول اسمها مؤسسة دينا للتجارة في السلاح

بهتت من كلامها لم تكن تدري أن زوجها أقام مؤسسة باسمه . وأنه يتعامل في التصدير والاستيراد كان كل ما يربطها بزوجها الفراش وحضور الحفلات الساهرة وقضاء الصيف على الشواطئ الفرنسية في اغلب الأحوال لم تعرف شيئا عن أعماله او عن المؤسسة التي تركها أبوها تعمل بعيدا عن مؤسسة زوجها حتى إبراهيم لم يقل لها هذه الحقائق قالت

إن هذه المؤسسة بنت مؤسستي وأنا الآن أقول لك مع السلامة لا أريدك فيها

دخل ألبير مكتب عائشة لما سمع صوت دينا العالي الصارخ وقال بأدب

أتسمحين يا سيدة دينا ؟

كان يعرفها وتعرفه ، فطالما سهر مع ابنها في قصر والده أثناء ما كانا يستذكران معاً أو بعد تخرجهما . أخذها بهدوء إلى مكتبه وقال : لم هذا الغضب ؟ ..

حاولت أن تصلح من هندامها وشعرها الناعم المتطاير من الغضب وقالت : أنا لا أريد هذه المرأة في مؤسستي .

قال ألبير بصوت ناعم عسى أن يشحنها بشحنة تهدأ بعدها : هذه المرأة .. هي زوجة ابنك .. لا تنسين .. قالت وهي تحاول أن تستخرج سيجارة من حقيبة يدها : أنا لا أريدها في مؤسستي .

قال ألبير : إنها لا تعمل في مؤسستك . إنها تعمل في مؤسسة السيد جلال .. زوجك .. والد إبراهيم .

تساءلت : كيف ذلك ؟ .. جلال ليس له مال . إن المال كله خاص بي .

ابتسم ألبير وقال : يا سيدة .. إن السيد جلال يعمل منذ زمن بعيد في التصدير والاستيراد .. منذ أن كان والدك على قيد الحياة . لقد أستقل عنه . ولعلك تذكرين أن المؤسسة كانت مقامة على قطعة أرض تخصك وبنى عليها دوراً ثانياً بموافقة والدك . يمتلكه السيد جلال بمقتضى عقد موثق . وكون فيه مؤسسته . إن ذلك حدث في زمن والدك . قالت المرأة ، وهي تنفث دخان سيجارتها التي أشعلتها منذ قليل : لم أكن أعرف ..

قال ألبير : ذلك لأنك كنت تفوضين السيد جلال في إدارة أملاكك التي ورثتها عن أبيك . هل تعتقدين أن متجرك الذي ورثته عن والدك هو الذي حولك من ثرية إلى مليارديرة .

- أظن ذلك .

- لا يا سيدة .. إن أعمال السيد جلال الخارجية هي التي صنعت ذلك الثراء الفاحش .

- وما هي هذه الأعمال ؟

- التصدير والاستيراد .

- فيما يصدر ويستورد ؟ ..

- كل شئ .. الفاكهة . المعدات الآلات .
سكت ألبير ثم قال : أظن أن عليك أن تعتذري لعائشة فيما بدر منك .. سوف يغضب إبراهيم إذا عرف أنك عنفتها بلا سبب .
نهضت وقد دست السيجارة في بوتقة قريبة . وقالت : لن أعتذر .

***

عادت دينا إلى القصر ، تراجع نفسها . هل أخطأت في تعنيف وطرد زوجة ابنها بلا سبب . لم هي تكرهها لهذه الدرجة ؟ .. هل لأنها تفردت بأبنها في بيت مستقل ولم تسكن معها . هل تكرهها لأنها تحس أنها تتعالى عليها أو تتباعد عنها ، ولا تنحني وتقدم فروض الطاعة والولاء ، وتقصر من زياراتها . غير أن كل هذه الأفكار تلاشت ، حينما وجدت الشجار مشتعلاً بين رشا وزوجها الغيور . تراشق بالألفاظ لكن لم يصل إلى درجة الإسفاف . كان سعيد ينطق الكلمات بصعوبة ، ووجهه الأسمر المحتقن اصبح نحاسياً
سألت : ماذا حدث ؟ ..
قال سعيد : وجدتها مع رجل تتناول الإفطار .
قالت رشا : تأدب . أنا لم أكن مع رجل .
التفتت دينا إليها وسألتها : ماذا حدث بالضبط ؟ ..
قالت رشا بهدوء : عميل من عملاء الشركة .. وجدني أتناول الإفطار في مطعم من المطاعم . حياني وجلس هل أطرده ؟ ..
قالت دينا : لا .
استمرت رشا تقول : بينما السيد سعيد يمر على المطعم فشاهدني ، وكأني كنت في وضع غرامي فاهتاج ودخل المطعم وشدني من يدي بهمجية . وعاملني بوحشية .
بكت رشا بين يدي أمها . سألته دينا : ألا تستفسر .. أم تتهجم عليها بهذه الطريقة ؟ ..
تركت رشا حضن أمها وانفجرت قائلة : طلقني .. طلقني ..
قال سعيد : لن أطلقك أبداً ..

-إذاً غادر هذا البيت .
- سوف أغادره وسأطلبك في بيت الطاعة .
ضحكت بجنون وقالت :
- من المحاكم المصرية .. على ما أظن .
وحزم سعيد حقائبه وغادر القصر ولم يتمسك به أحد .

***

قالت دينا : ما هذا الذي فعلته ؟ ..
ردت بغضب : أرجوك يا أمي لا تتدخلي في حياتي الشخصية . إنه غيور بشكل مرضي ، وأنا لم أعد أطيقه .
قالت دينا : ما كان يجب أن تطرديه من البيت . وتذكري أن في أحشائك جنيناً منه .
قالت رشا وهى تمضي إلى حجرتها : لم أعد أطيقه يا أمي . لم أعد أطيقه .
دخلت حجرتها وهى تكاد تتلوى من الألم . ألهذه الدرجة غيور ؟ .. مجرد أن يجد رجلاً يجلس أمامي في المطعم يعتقد أنه عشيق . من أى مادة ركب عقل ذلك الرجل .. لعلها حجر .. أو صخر .. أو لعل لا عقل له ..هل أخطأت أن قبلت تطفل الرجل على مائدتها . لعلها دعته ولم تكن تظن أبداً أن سعيداً سيمر بها ويراها جالسة تتكلم معه . إنها لم تكن تفعل فعلاً مشيناً . والأمر عادي للغاية . لكن في بلده مصر قد يكون خطيئة كبرى أن تجالس امرأة متزوجة رجلاً غير متزوج . إنها لم تعلم شيئاً عن هذه التقاليد ، ولا يجوز أن يحاسبها على تقاليد لم تمارسها يوماً .

***

لم يدر سعيد أين يذهب وقد أتخذ قراره الانفعالي . كان يريد فقط أن يعاتب رشا على أنها جالست رجلاً في مطعم عام ، ولكن لم يكن يظن أن الأمر سوف يتطور بهذه السرعة إلى مشاجرة ، ومطالبة بالطلاق ، وخروج في عز الظهر إلى خارج ذلك القصر مطروداً . وداعاً للنعيم . وداعاً للراحة . لم يكن من المقبول أن تطرده من قصر أبيها ويبقى فيه . بقاؤه فيه مهانة . لو بقى للام

نفسه طويلاً لقد اتخذ القرار الصائب ، لكن في نفس الوقت خراب لم يكـن علـى البال.

الفصل الحادي والثلاثون
فوجئت

غمرت السعادة قلب رانيا لما غادر سعيد القصـر . عرفـت القصـة مـن أمهـا التي يسعدها أن تثرثر في كل ما يحدث. عرفت أن سـعيداً ضبـط رشـا تجـالس رجلاً في مطعم ، لما عارض ذلك الوضع حدث الاشتباك بينهما . فما كان من رشا إلا أن طردته ، غادر القصر غير آسف . وأغضبها أن قال لرشا إنـه لـن يطلقها أبداً. لم لا ينتهز الفرصة ويطلقها . إن سعادتها ستكون غامرة لو طلقهـا ذلك المهاجر إلى المغرب ، أصبحت زوجاً لسعيد بدلاً من أختها .تحبه تهيـم بـه . وهو يدرك ذلك الحب ، لكنه يتعامل معه بغموض وحـذر . يخشـى أن يكـون زوجاً لأخت وعشيقاً لأخت أخرى .

ذهبت إليـه فـي الجامعـة تشـد أزره . وتلمـح لـه أن يطلـق أختهـا . وأسست تلميحها على أنه غيـور أكـثر مـن الـلازم . ورشـا متحـررة أكـثر مـن الـلازم . فكأنهما قضيبا قطار لن يلتقيا أبداً كانت تنتظر أن يدعوهـا إلـى فنجـان شـاي أو قهوة ، ويتبادلا الحديث ويخططا للمستقبل، لكن سعيداً شكرها على توصياتهـا ، واعتذر لأنه على وشك مقابلة المشـرف علـى رسـالته لمناقشـة بعـض الجوانـب توطئة لطبعها .

سألته : متى تنتهي المناقشة ؟ ..

– قد أحتاج إلى ستة شهور أخرى .

– وماذا بعد ذلك ؟ ..

– سوف أعود إلى مصر .

- وألن تعود أبداً ؟
- لا .. لن أعود .
- وابنك أو ابنتك ؟ ..
تحير قليلاً ماذا يقول الإنسان في هذا الموقف ؟ .. رفض أن يفصح ، وقال : ربنا يسهل .

•••

تدريجياً تحول الحب في قلب رانيا إلى كراهية . كان إهمال سعيد لها وعدم إفصاحه عن حبه قد جعلها تغضب . وهاجم الغضب الحب فأرداه قتيلاً في قلبها .وظاهر أنه يهوى ولا يزال يهوى رشا رغم ما فعلته فيه . تأجج الغضب في قلبها واستعر وارتفعت حرارة القلب فتفحم الحب وتحول إلى كراهية . وعزمت على أن تفرق بينهما رغم أنه يبدو أنه لا يريد الانفصال عن رشا . يريدها بيتاً موقوفاً حتى نهاية العمر .
فوجئت بعد أيام أن رشا عادت إلى سعيد .. كيف ؟ .. لم تفصح رشا ، لكنها أعلنت أمها أنهما سوف يسكنان في شقة بالقرب من الجامعة . شقة مفروشة في الوقت الحالي حتى يتدبرا أمرهما ويجدا شقة يقومان بتأثيثها .
قالت رانيا بخبث : أتعودين إليه وأنت تعلمين أنه غيور ؟ .. سوف تتذوقين العذاب على يديه .
- سوف أحاول أن أصنع منه شخصاً آخر .
- معقول .. ستة شهور زواج لم تصنعي فيها شيئاً . و ..
قاطعتها قائلة : كنت غير متفرغة . وليس لي بيت ولا نلتقي إلا لماماً .
قالت الأم كأنها تضع حداً للحديث :
- أنت حرة .. أفعلي ما تشائين . وأنت لست صغيرة . أنت راشدة.
لم تكن الأم تهوى أن تجمع الأبناء حواليها ، مثلما شاهدت في أحد المسلسلات السورية في القناة الفضائية القادمة من دبي . حيث كانت هناك امرأة تهوى جمع الأبناء والبنات وأزواجهم حواليها ولا تفرط فيهم وتحول دون أن يخرج واحد منهم من كنفها . إنها ليست كذلك إلا في حالة واحدة أن يقوم

الزوج أو الزوجة بمنع البنت أو الولد من وصل العائلة . صلة الرحم عندها لا بد أن تغذى وتنمو . وفي حالة عائشة كانت تشعر أنها تمنع إبراهيم عن أهله . ونما ذلك الشعور في قلبها حتى أنها كانت تتاكف عائشة . هذا هو سبب كراهيتي لعائشة إنها تمنع إبراهيم عني . أهذا وهم ؟ ..

***

حملت رشا حقيبة ملابسها ، وركبت سيارتها إلى الجامعة . كانت حالتها النفسية هادئة كأنها وردة تفتحت وتنتظر مزيداً من الطل والندى . تذكرت أنه أمسك ذراعها ، وهي تسير حاملة جزءاً من رسالتها لتقديمها إلى المشرف . وهو يقول لها :

– أنا آسف .. لقد ظلمتك .

تساءلت ، وهى تحاول أن تتخلص من يديه :

– أعرفت أخيراً أنك ظلمتني ..

قال وهو يحاول أن يضمها إليه وهى تتملص منه :

– أنا أعتذر .. إلى أين أنت ذاهبة .. ؟ ..

– ذاهبة إلى المشرف لينظر بعض الأجزاء التي انتهيت منها . وأنا معك لم انته من شئ.

– ليس بسببي . إنما بسبب عملك صباحاً ومساء .

قال يغير الحديث :

– ما رأيك أن يعود كل منا للآخر .. ونبدأ حياة جديدة خالية من العقد ، لكن في شقة مستقلة .

– وأين هي الشقة المفروشة ؟ ..

– شقة مفروشة بالقرب من الجامعة .

– وهل وجدتها ؟ ..

– إنني أسكن فيها حالياً .

– إذاً انتظرني حتى انتهي من المشرف .

انتظر طويلاً وهو يزفر . وجاءت تتهادى . إنها تعرف أن فيها سحراً لا يقاوم ، ولكنه هو الآخر لديه سحر ، فقد أطفأ ناراً اشتعلت في صدرها ، وأخمد بركاناً كان يطلق حمم الغضب من حين لآخر .. بكلمات قليلة .

لما وصلا إلى مقر الشقة ، وصعدت معه إليها ، احتواها في حضنه ، كأنما يصب الماء على البركان فيخمد . وكأنما الغضب سحب من قلبها . وعادت رشا التي عرفتها وعاشرتها ساذجة بسيطة. كانت في الأيام الماضية عصبية مخيفة ، يشعر الخدم بالذعر كلما دنوا منها . أما الآن فقد أصبحت رشا البشوشة الهادئة . كم تكلف النفس المشاحنات من مجهود . توتر . وقلق . وأرق . ينتهي كله في ثوان . ما أعجب هذا الإنسان ! ..

تفقدت الشقة فوجدتها مريحة . منعت نفسها من المقارنة بين قصر أبيها وشقة زوجها ، فالمقارنة في هذه الحالة صعبة وغير عادلة . وإذا جمعهما الحب فإنه كليل العين عن كل المساوئ . وأعجبت بالشقة لبساطتها ، وما فيها من آلات حديثة . لا يملكها إنما يملكها صاحب الشقة . ولكن ليس هناك حرج في استعمالها . الآن سوف تطبخين ، وكنت لا تدخلين المطبخ في قصر أبيك . والآن سوف تكنسين وكانت يدك لا تمس مكنسة . بل سوف تمسحين هل تعرفين كيف تمسحين بخرقة ؟ ..

أكلت معه أكلاً اشتراه من السوق . وشعرت بالهناء ونظرات عينيه تغطيها . هذا المصري فيه سحر عجيب يدفئ مشاعرها .

سمعته يقول :

- هل ستساهمين في إيجار الشقة ؟ ..

الفصل الثاني والثلاثون

تباعد بسبب تباعدك

لم يلبث إبراهيم طويلاً لدى أبيه ، بعد أن علم أن الرجل تزوج من هذه المرأة التي قابلته وفتحت له باب الشقة . طلب منه أن يبقى فالحجرات كثيرة ، لكن لم يستطع . لعله كان رافضاً للوضع لكن عندما اختلي إلى نفسه تساءل : ماذا كان يفعل الرجل وقد أدارت له أمي ظهرها ؟ .. هل كان عليه أن يعبث أم أن يلجأ إلى الطريق المستقيمة ؟ ..

خرج إلى الشارع وشاهد بيروت مزدانة بالأعلام والإعلانات الانتخابية والهتافات تدوي في الطرقات . إنه يوم انتخاب المجلس التشريعي . وطلب من سائق السيارة الأجرة أن يأخذه إلى الجبل .

هناك لن يصادف مثل هذا الهوس الانتخابي . ويستطيع أن يخلد للراحة بعد عناء طويل في مناقشات السلاح في سراييفو . أما هنا فلا توجد مناقشات فالأحزاب توقفت عن طلب السلاح بعد أن اصبح محظوراً عليها استعماله .

•••

سألته بامتعاض :

- غبت كثيراً .. أين كنت ؟ ..

قال إبراهيم ، وهو يتأمل والدته بعمق :

- كنت مع أبي .. أعرض عليه الصور الملفقة لأبرر موقفك منه .

سألت مستغربة :

- وماذا قال ؟ ..

- أكد أنها ملفقة .

- وأين هو الآن ؟

- في لبنان ، يعيش في بيروت . تباعد بسبب تباعدك .

- وماذا ينوي أن يفعل بعد أن عرف الحقيقة .

- لا أدري .

قالت : على راحته . ثم أضافت متسائلة : هل تزوج ؟ ..

لم تظهر عليه علامات التردد كأنما كان يخمن ذلك السؤال من أمه ، فقال على الفور : لا أعرف .

وغيرت مجرى الحديث مائة وثمانين درجة حينما سألته : هل عينت عائشة في مؤسستي ؟ ..

قال إبراهيم وقد لاحت على وجهه علامات الغضب :

– لا .. لم تعين في مؤسستك ! ..

– لقد وجدتها تعمل هناك .

– إنها تعمل في مؤسسة والدي وليس في مؤسستك . إن مؤسستك لا تحتاج إلى موظفين إلا قلائل . ولا يجوز أن أتخمها بالموظفين .

سكتت قليلاً ثم عادت تسأل :

– كيف أن أباك لم يخبرني أن له مؤسسة ؟ ..

أجابها بتساؤل : ألم يقل لك ؟ ..

أجابت على الفور : لا .. لا .. لم يقل .

هز رأسه وهو يقول : كنت أظنه قال لك .

ورسمت علامات الاستغراب على وجهها ، ثم سألت : من أين له ذلك المال ؟ ..

قال إبراهيم : إن المؤسسة تعمل من قبل وفاة جدي .. والدك .. فكيف لا تعرفين ؟ .. إن جدي لم يكن حتى شريكاً مع والدي . والمؤسسة مسجلة باسمه في السجل التجاري . كيف لم يخبرك جدي بذلك ؟ ..

قالت مستغربة : لا أعرف ..

***

لم تقل عائشة شيئاً عن الصدام بينها وبين حماتها ولا عن صلافتها ، إنما ألبير هو الذي قال لإبراهيم . كيف عاملتها وكيف واجهتها عائشة بقوة . أكبر فيها إبراهيم هذا التكتم . عرف أنها لا تريد أن تصنع شقاقاً بين الأم وولدها . ولم يحاول أن يسألها عن أسباب تكتمها ذلك الحدث الغريب من أمه . بل لم يحك لها ماذا فعل في رحلته في الخارج . لكن لما قابل إبراهيم بسام في معمله

بالقصر، ورآه يستعرض حلقة جديدة من حلقات الذئاب والحملان وغير ملتفت إليه . أراد أن يفيقه من استغراقه في العمل فقال :

-أتعلم أن أباك تزوج ؟ ..

نظر بسام إليه ولم يتكلم وهو يقلب الفيلم في يديه ثم سأل : وماذا تظنني بفاعل ؟ ..

قال : أبداً . ظننت أن ذلك يهمك .. فقد تجد شريكاً لك في تركة أبيك زوجة أب .. وأخوة آخرين . أولاداً منها .

ضحك بسام وقال :

– الخير كثير يا أخي . فماذا يحزنني ؟ ..إنني حينما أواري في التراب لن آخذ شيئاً معي ، ثم إن الرجل حر . حقاً طبقاً للقانون الفرنسي يحاكم بسبب تعدد الزوجات . لكن طبقاً لقانون أى بلد إسلامي لا يحاكم بل يبارك .

قال له وهو يضغط على كلماته :

– المهم ألا تحكي لأمك

قال : وما السبب ؟ .. أتريد أن تضيع على عنصر الدراما في التمثيلية ؟ ..

الفصل الثالث والثلاثون
الطنين على الأذن

يعرف ما تهدف إليه المرأة الشرقية ، إنها عادة أسرة فيها لا تحيد عنها لكن عليها ألا تكون شرهة فتكره . وعادة ما تستعمل أسلوب الطنين على الأذن . بحيث يحدث ما يفعله السحر . فقد كانت سميرة تلح عليه أن يأمن مستقبلها . تلمح له أنه شيخ يقترب من الستين ، وكان يضايقه أن يذكره أحد بسنه . وأنها حتى ولو لم تنجب فهي مسئولة منه . يجب أن تكون زوجاً لرجل يسترها خاصة أنه ملئ . أنشأ لها وديعة في أحد المصارف في لبنان حتى تدر عليها

ربحاً وفيراً ولا تكون في حاجة إليه . غير أنها استمرت تلح أن ينشئ لها من حين لآخر وديعة جديدة أو ودائع جديدة بصفة دورية ، وأن يشترى لها شقة في بيروت . وألمحت أنها كان يهمها أن يبيع لها داره في صيدا بدلاً من الأغراب .واشترى لها سيارة باسمها حتى يمكن أن تقضي مشاويرها بمفردها دون ما حاجة إلى سيارته الخاصة . واكتشف جلال أنها تلتصق به من أجل المال . وماذا كنت انتظر من أنثى في الثلاثين غير الجشع ؟ .. تكشف له ذلك من خلال إلحاحها المستمر على أن تؤول إليها منه " مصاري " كثيرة . أمر سيئ أن تكتشف حقيقة بشعة في شريك حياتك بعد عقد القران فالعلاقة ليست حباً صرفاً إنما هي علاقة امرأة تمتص رحيق رجل . والرحيق في هذه الحالة ليس شبابه إنما أمواله .

***

جاء الطبيب ليكشف على المريض المقعد . قالت له سميرة : لقد سقط فجأة ولم يعد يتحرك بعد أن اتصلنا بك . قفل الطبيب عليهما الحجرة وطفق يفحص المريض وهو ممدد على الفراش فاقد الحركة. ثم خرج إلى السيدة المنتظرة في الخارج . وقال بنبرة حادة:

_ شلل مفاجئ . يبدو أن ضغط الدم قد ارتفع فجأة . اعتقد أن حالته يمكن شفاؤها في سويسرا . سأكتب له عدة أدوية وعلينا بتسفيره في الحال .

– أنا ليس معي جواز سفر .

– لا أهمية لسفرك . يمكن أن أسافر معه . وأرتب عملية استقباله في مطار برن مع المستشفي الخاص .أنا أعرف مستشفي كان يتردد عليه .

– أليس من الواجب أن أسافر معه ؟ ..

– ماذا ستفعلين ؟ .. إنهم في سويسرا يتكلمون الألمانية أو الفرنسية . ويبدو أنك لا تعرفين فيها شيئاً . وأين ستمكثين ؟ .. أنا أعرف مريضي وأعرف كيف أتصرف .

– أفعل ما هو مناسب .

***

دخلت عليه وهو طريح الفراش . قالت :

- الطبيب يوصي بسفرك إلى سويسرا.

لم يستطع أن ينطق . هز رأسه موافقاً ولم يقل شيئاً كأنما فهم ما تعنيه . قالت بأسف : كنت أود أن أذهب معك ، لكنه نصحني أن أبقى هنا .

هز رأسه وقد أعوج فمه بالموافقة على بقائها كأنما فهم . حاول أن يتكلم لكن لسانه عجز عن الكلام . وقالت تهمس لنفسها وقد سمعها

- إن هذه العلة لو بقت معي لأستنزفت قواي . سال الدمع من عينيه وسألته :

- لم تبكي ؟ .. حاول أن يتكلم لكن لسانه لم يسعفه .

قالت بغضب : سوف أذهب لأشتري لك الدواء .

•••

ودعته سميرة في المطار ، والطبيب يدفع مقعده الذي تمدد عليه .. بأعصاب خائرة . وقد عوج المرض لسانه ، وأسال اللعاب من شدقيه .. هذا جزاء من تتزوج من عجوز ؟ .. راحت تقول لنفسها . وقالت : إني أنتظرك يا جلال . أغمض عينيه كأنه لا يستطيع أن ينطق بكلمات الوداع الأخيرة . لحن لا يستطيع أن يؤلف موسيقاه .

ارتفع المقعد بمساعدة رجلين إلى داخل الطائرة . ووضع المريض في مقعد بالدرجة الأولى بجانبه طبيبه الخاص المرافق له .

قفلت أبواب الطائرة . وأذاع القبطان أن الطائرة سوف تتحرك لتنجز رحلتها إلى سويسرا. وستصل إلى برن والوقت لا يزال مبكراً. وارتفعت الطائرة تشق السحاب المتراكم . وتباشير شهر أكتوبر تعلن قدومها .

التفت الطبيب إلى الرجل وقال : يمكنك الآن أن تعتدل .

واعتدل المريض في جلسته . ومسح شدقيه بمنديل ورقي وقال :

- التمثيل صعب يا دكتور .

- إنه سهل عليك يا أستاذ جلال .

الفصل الرابع والثلاثون

مفاوضات الذئاب والحملان

دأب بسام على تقطيع حرب الأيام الستة على عدد من الأفلام الكرتونية .. حتى لا يظهر بوضوح الصراع بين الإسرائيليين والمصريين . وجعل الصراع بين الذئاب والحملان . وأراد أن يقفز من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٩٦ حيث ما زعم أنه سلام بين العرب وإسرائيل كان سلاماً زائفاً بعد أن تقلد نتانياهو الحكم .وراح ينسف كل ما تم الاتفاق عليه في اسلو وطابا .. وصمم أن يضع أفلاماً كرتونية تبين الفترة الماضية ، وأفلاماً أخرى توضح الفترة الحالية .

زمجر اليهودي عضو مجلس إدارة الشركة لكن أحداً من الأعضاء لم يلاحظ أن الحملان هم العرب وأن الذئاب هم الإسرائيليون . وإلا لقدم بسام إلى المحاكمة بتهمة العداء للسامية مثلما قدم جار ودي الفيلسوف الفرنسي الذي أسلم وكتب كتاب الأساطير المؤسسة لسياسة إسرائيل . أدار بسام الفيلم الكرتوني الجديد ، لتضع جانيت ملاحظتها عليه : مفاوضات الذئاب والحملان .

جلس الحملان إلى مائدة المفاوضات مع الذئاب . استعر النقاش بينهم على الأرض التي احتلها الذئاب عنوة من الحملان . طلب الحملان من الذئاب أن يرحلوا عنها . قالت الذئاب إنها أرض أجدادنا فكيف نرحل عنها . نظر الذئب الكبير وقال لنائبه : طالما تمنيت أن آكل هذا الكبش حينما كان حملاً لكن الآن تعافه النفس . إنني أتطلع إلى الحملان الصغيرة المرابطة في الخارج تنتظر نتائج المفاوضات . ضحك النائب وقال : كيف تفاوضهم وتتمنى أن تأكلها؟ .. قال الذئب الكبير : هذا هو سلام الذئاب والحملان . هدنة قصيرة الأجل آكلها بعدها واحداً واحداً . قال النائب : أخشى أن ينطحك الكبش في بطنك فتفرغ امعاؤك . ألا ترى أن له قرنين ؟ .. قال الذئب الكبير : وأين ضاعت مخالبي . قال الكبش الكبير : نريد أن نتفاوض ، ودعونا من الأحاديث الجانبية الهامسة .

وأخيراً وبعد مفاوضات مضنية ، تصافح الكبش الكبير ورئيس الذئاب . ووقعا الاتفاق المكتوب .ما كاد الذئب الكبير يصل إلى أرض الوطن ، تحيطه

مظاهرة أنصاره ، حتى أنقض عليه ذئب صغير قصير ، نهشه في عنقه فأرداه قتيلاً . قال الذئب الصغير للمتظاهرين : قتلته لأنه ضيع أرض الأجداد .

قبضت شرطة الذئاب على الذئب الصغير وأودع السجن . لم يخرج من سجنه إلا ليدلي برأيه في انتخابات الذئب الكبير الجديد . أختار ذئباً قال عنه : إنه سيعيد مجد الأجداد . يقف الذئب الجديد الكبير ويقول : إذا كانت الحملان تريد أن تنفذ الاتفاق ، فلتبحث عن من وقعه معها ، لأني لم أوقعه .

وتدور حرب جديدة بين الحملان العاجزة والذئاب المسعورة .

وقالت جانيت وهي ترى الكر والفر بين الحملان والذئاب : إن هذا أسلوب أمريكي في الإخراج . قال بسام : لا تنسي أن الأفلام توجه للأطفال يا جانيت .

هزت رأسها كأنها فهمت .

تأملها بعمق . لا يدري لم تحول شعوره نحوها بعد أن صرحت له بالحقيقة بأنها كانت متزوجة . أخفت الحقيقة عنه دهراً حتى واجهتها مشكلة . كان يظن أنه على استعداد للزواج منها وطرح مشكلات الزواج من كتابية جانباً ، لكن الآن وبعد أن تحررت من زوجها ، اصبح يشعر أنها غشته . طعنته في فؤاده . استمر على علاقته بها لكن قلبه كان يئن . كأن خنجراً من الكذب لا يزال في قلبه وأن الدم ظل يسيل من الجرح ولم يتوقف . بيد أنه أخفي عنها ذلك الشعور .وظنت هي أن الماضي بما فيه من نقط سوداء قد انمحى وأن بسام على وشك أن يعرض عليها الزواج مثلما كان يعرضه من قبل أن يعرف الحقيقة ، غير أنه يحتاج إلى وقت حتى يعلن رغبته . إنه لا يزال يحتاج إلى الشجاعة ليقدم على الخطوة الهامة ، لذلك فهي ستصبر حتى يستجمع شجاعته .

الفصل الخامس والثلاثون
صاحب الصور المزيفة

لم تتذكر أنها رأت الرجل من قبل ، فحاولت عائشة أن تحول بينه وبين الدخول لحجرة إبراهيم ، غير أن الرجل سبقها ، ودفع الباب داخلاً . يدنو من الستين ، ولكنه قوي البنية . تراجعت وهى تسمع إبراهيم ينهض متلقفاً إياه وهو يقول : أبي . وجدت أن من الخير ألا تظهر في الصورة ، ربما يعاملها الرجل معاملة أم إبراهيم السخيفة . انسحبت دون أن تبدي أسفها على مطاردته .

لكن بعد دقائق ناداها إبراهيم . ودخلت على استحياء ، والرجل يرمقها . وقال إبراهيم وهو يقدمها : هذه عائشة يا أبي . سكرتيرتي أولاً ثم زوجتي ثانياً .

نهض الأب ، وقد ذهل من جمالها . في المرة الأولى التي رآها فيها كان جمالها مستتراً ، أما الآن فقد تفتح على العز ، فأبيض وجهها وشرب من ماء الورد ، واسترسل شعرها ناعماً وظهر جسدها مليئاً بالأنوثة مفعماً بالصحة . ودنا منها وصافحها ثم لثم وجنتيها . وقال : مبروك . ولما انصرفت عائشة ، قال إبراهيم : أمي لا تحبها . قال الأب مستغرباً : ربما نعرة الثراء جعلتها تتعالى عليها .

- ربما ..
- ربما لا تقيمان معنا في القصر .
- هذا فعلاً ما حدث .

قال وهو يبدو كأنه يعلم ولده :

- ربما ذلك هو السبب . لقد شعرت أمك أنها أخذتك منها .
- تصور أنها كانت تريد أن تطردها من العمل ، وأنا في زيارة لبنان .
- يا خبراً . وماذا فعلت ؟ ..
- تمسكت بوظيفتها ، وقالت إنها عينت بمعرفتي ولا تفصل إلا بمعرفتي .
- مجرد أن تقاومها .. يجعلها ذلك تكرهها.
- يبدو أنك لم تذهب بعد إلى القصر .

- نعم نزلت في فندق . جئت من جنيف إلى هنا .
- ألم أتركك في لبنان ؟ ..
غادرت إلى برن ثم استقررت في جنيف بعض الوقت . ثم جئت إلى هنا . لم يحاول أن يسأله عن زوجه الجديدة وماذا فعل معها ، وهل أنفصل عنها أم لا تزال على ذمته . إنما سأل :
- وعلام انتويت ؟ ..
- أريد أن أعرف من ذلك الذي صور هذه الصور الكئيبة وأرسلها إلى أمك .
- وكيف ستعرف ؟ ..
- لقد وضعت خطة .. سأصارحك بها .

***

نشرت الصحف في صباح اليوم التالي نبأ عودة المليادير الفرنسي اللبناني الأصل من لبنان . وألمحت إلى أنه يفكر في الانفصال عن زوجه أم أولاده بعد زواج دام أكثر من ثلاثين عاماً . وأشارت الصحف إلى أنه يقيم في أحد الفنادق الكبرى بعيداً عن أهل بيته . وفي تصريح آخر ألمحت محررة الباب الاقتصادي بأحد الجرائد الكبرى عن أسم الفندق الذي ينزل فيه . وكان بينها وبينه حوار حول سياسة تصدير الفواكه في الأيام المقبلة بعد انهيار دول شرق أوربا الاشتراكية وتحرير البوسنة والهرسك من قبضة الحرب ذات الدائرة المفرغة .ورأى جلال أن مصيدة التصريحات تمكنت من إطلاق أربعة فئران من الجحور . الأول كان رجل أعمال توثقت بين جلال وبينه أواصر الصداقة حتى امتدت إلى الزيارات العائلية ، لكنه خان الثقة في المعاملات التجارية ، وظهر بمظهر المستغل للصداقة ، ففصم جلال منذ زمن عري الصداقة بينهما . والثاني كانت امرأة صديقة لزوجته ، حاولت مراراً أن تجره لشبكتها ، غير أن الصيد كان ينفر من المقربين ، فكان جلال يفلت من الشباك بسهولة .والفأر الثالث كانت امرأة أيضاً صديقة حميمة لزوجه تحاول معه بالنظرات والآهات ، لكنه تجاهل تلميحاتها وآهاتها . كانت تلك هي سوزان . والرابع رجل من رجال الأعمال عرف بعداوته لجلال بسبب المنافسة في مجال تجارة السلاح .

ولم تكن بينه وبين جلال أي علاقات لا سابقة ولا لاحقة ، ولكن جـلال اكتشـف أنه يعرف امرأته. ظهر الأربعة في أوقات مختلفة لكن جلال ربط بين ظهورهم وبين الرغبة في التقرب إليه بعد أن أعلن هدم بيته . ربما كان واحد منهم صاحب الصور المزيفة جاء يتقرب إليه أو ليتأكد فعلاً أن الصور كان لها نتائجها الجيدة فحدث التفكك الأسرى واضطربت حياة جـلال ، فإذا كان رجلاً فهو يسعى إلى اضطراب حياته ومن ثم فشل تجارته . وإذا كان امرأة فسوف تسعى للتقرب منه لترتبط بها وتفوز بفرنكاته .

كان يتناول طعامه في مطعم الفندق ، حينما مر به كاردان صديقه القديم الخائن . وقال : أتأكل خارج قصرك يا جلال ؟ ..

نظر إليه جلال كأنما ينظر إلى ذكرى صداقة ولت وليس لها ملامح. وقال : وما المانع يا صديقي الخائن ؟ ..

قال وهو يمد يده إلى مقعد ويجلس ويقول :

– أنا لم أخن ، ولكنها التجارة يا صديقي مثل المرأة تفرق بين الأصدقاء .

مد يده إلى ورقة من الخص ترقد في صحن السلاطة تجمله . وطفق يأكلها وجلال يقول :

– ألا تدري أن علاقتنا معاً انفصمت منذ زمن .

قال ضاحكاً

– إن الانفصام سقط بالتقادم مثلما تسقط الديون يا صاح .

قال جلال هازئاً :

– هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يسقط بالتقادم لأنه أصلاً سقوط فكيف يسقط ؟ ..

– الديون أيضاً سقوط لكنها تسقط .

شعر جلال أن الرجل يريد منه شيئاً ، ويلح على الصداقة ، ويتودد إليه ، لكن جلال لم يساعده ، ثم حاول أخيراً أن يكشف أمره لربما استطاع من هذا الكشف أن يتأكد أنه صاحب الصور المزيفة سأله : – ماذا تريد مني بصراحة دون لف أو دوران ؟ ..

قال : أنا لا أريد منك شيئاً . أعطاني ربي فأكرمني . إنما أشعر أن صداقتنا القديمة قتلت دون مقتض . ..
قاطعه قائلاً : دعها تموت . لقد دفنت منذ زمن ، فهل يبعث الميت من قبره ؟ ..

***

في الملهى الليلي التقى بها . قامت من جلستها مع بعض الأصدقاء . وتقدمت منه وصافحته . وسألته : هل نسيتني ؟ .. قال : ومن ينسي ايفون يا عزيزتي . قالت : فمن أكون إذاً ؟ ..
كاد أن يقول لها إنها صاحبة الصور المزيفة ، لكنه أحجم . يبدو أنه اصبح مريضاً بهاجس هذه الصور ، يشك في كل إنسان من أجل أن يعرف صاحبها . قال : أجلسي . استمتع بالوقت معك . قالت : أعتذر معي بعض الأصدقاء . قال ضاحكاً : إذاً أنت نسيت حبك القديم . قالت : ألا تعرف أن زوجتك صديقتي ؟ قال : لقد كنت تتمنين الوصال في الماضي فماذا حدث لك ؟ ..
جلست وهي تقول : سمعت أنك قررت الانفصال عن دينا . هل هذا جائز بعد ذلك العمر ؟ ..
قال : كل شئ جائز يا أيفون .
– أنا أود أن أنبهك إلى أن هذه غلطة كبري .
– لكنك كنت تريدين اختطافي فيما سبق .
– نعم .. نعم ..لكني عقلت .
– ومن أدراني ربما تريدين من ذلك أن تثيري في الشوق فأجري وراءك واصبح بين يديك .
– كم أتمني فعلاً يا جلال . لكني لا أريد أن تتحول صديقتي دينا إلى أنقاض . أرجع إليها واستمع إلى نصيحتي .
– سوف أفكر ..
لم يقتنع جلال أن هذه المرأة ترشده إلى الصواب . فكر أنها لا تزال متعلقة به وجاءته من زاوية الإرشاد حتى يقرف منه ويتيم بها . غير أنها غادرته دون

أن ترتبط بميعاد للقاء . وانضمت إلى ثلة أصدقائها . وراح ينظر إليها من حين لآخر لكنها كانت سادرة عنه .

***

عقد مؤتمر لرجال الأعمال في الفندق . كانت سوزان مترجمة المؤتمر للعرب المنضمين إليه . تلك المرأة اللبنانية التي كانت تبدي أعجابها به ، وتحجم عن مطاردته صراحة . صديقة زوجه مثل أيفون . كأنما كانت النساء تصاحب دينا من أجل الفوز بزوجها . يبدو أنه يتهيأ لك ذلك يا جلال . إذا كانت هناك كلمات إعجاب فبماذا تفسرها يا فلنتينو عصرك ؟ .. أمن المعقول أن تنظر امرأة في شرخ الشباب لرجل في وهدة الشيخوخة ؟ ..

التقت به وصافحته . بل قبلته في وجنتيه . ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، كأنما كانت في اشتياق إليه . أتكون هي صاحبة الصور المزيفة . لقد صرت يا جلال تشك في كل إنسان . إن ذلك ممكن لأن سوزان تريد أن تفسد العلاقة بين زوجي وبيني فأطلقها لما تستحيل العشرة ، حينئذ تظهر سوزان وتأسره بجمالها فيسقط طريح غرامها .وقد حققت الصور مرادها بتباعد دينا عني فتباعدت عنها .

ولم لا يكون ما فعل ذلك الفعل المشين رجل . رآه في المؤتمر . إنه مروان ذلك الرجل الذي ينافسه في تجارة السلاح . يريد أن أنشغل بهدم بيتي وأنسى التجارة . وقد لاحظ من قبل أن ذلك الرجل كان يبدي اهتماماً زائداً بزوجه . اكتشف جلال بالصدفة أنه يعرف زوجه وأنه حينما يلتقي بها في الحفلات الخاصة التي يقيمها أثرياء باريس يتودد إليها . وأنكرت دينا أن التعارف بينهما صار وثيقاً . إنما هو تعارف سطحي لا يصل إلا لمرتبة المصافحة والمحادثة العابرة . لم لا يكون ذلك الرجل أراد التفرقة بيننا فأعد هذه الصور المخجلة وقدمها إلى دينا ؟ ..

حضر جلال المؤتمر .كما حضره مروان . وشاهد سوزان في مقصورة المترجمين . والتقت عيناه بعينيها كثيراً . ربما تريد أن تنتشلها من هذه الحالة المتوسطة التي تعيش فيها . ربما تريد ملايينه فدبرت هذه المكيدة . لكن مروان

لم ينظر ناحيته بل تجاهله في فترة الاستراحة حينما مر به .. منذ زمن بعيد يتجاهل أحدهما الآخر ولا يلتفت إليه . إنهما يتنافسان في بيع السلاح فكأنهما قطبان متنافران .

انتهى المؤتمر والشك في قلب جلال يلعب ، ودار حول هذين الشخصين : سوزان ومروان . هل يستأجر شرطياً سرياً ليتعرف على هذين الخبيثين ويعرف من منهما صاحب الصور المزيفة .

الفصل السادس والثلاثون
أنت طالق

اكتشفت أن البعد سلاح ذو حدين . إما أن يدمر الحب ، وإما أن يقويه . وفي حالتها دمره . كان سعيد يلزم الجامعة صباحاً يدقق في المراجع ، ويحاول في المساء أن يواصل الجزء العملي من رسالة الدكتوراه . ويذهب أيضاً إلى عمله الجزئي .ذلك العمل الذي كانت رشا صاحبة الفضل فيه . لم يكن يراها إلا في المساء . أما في فترة الظهيرة فقد كان يتغدى في الجامعة . وكانت تتغدى في أحد المطاعم القريبة من العمل . وتذهب لمقابلة المشرف على رسالتها أياماً قليلة في الأسبوع ، حيث أنها لم تستكمل الجزء النظري بعد منها . وشغلتها آلام الحمل عن مواصلة إعداد الرسالة كما ينبغي ، فطلبت من المشرف أن تقابله في فترات متباعدة ووافق الرجل وهو يتأمل حالها بعد الحمل ويشفق عليها من متاعبه .

كثيراً ما كانت تلتقي بسيمون ، ذلك الرجل المهذب عميل الشركة الدائم . حياها في البداية وهما يدخلان المطعم . وسمح لنفسه في المرة الثانية أن يجالسها . وفي المرة الثالثة أطرى على جمالها . صدته بقولها : لاحظ أنني امرأة متزوجة . قال : الثناء لا صلة له بالزواج أو العزوبية . ابتسمت ولم تحر جواباً في المرة الرابعة قدم إليها هدية رقيقة . ولا تدري كيف قبلتها . ولا

الأسباب التي ضغطت عليها لقبولها . لعلها أسباب تختفي في وعيها الباطن بالفعل ولا تدري بها .

هل بدأ البعد بينها وبين سعيد ينتج أثره السلبي ؟ .. هل التباعد أصبح جفاء يقتل الحب أو يعذبه حتى يموت ؟ .. فهو يمنع عنه الارتواء ويخنق الشوق ويجعله في خالة من العطش مستمرة . يقبل في لحظة الظمأ ماء يقدمه أى إنسان . لا تدرى كيف تعلقت بسيمون ، وهى تعرف أنه مسيحي ولا يجوز لها - إذا طلقت أن تقترن به . وليس من شيمها أن تنقاد وراء نزوة كبيرة ترتكب فيها موبقة .. تأبى أخلاقها أن ترتكبها .

واعتادت أن تقابل سيمون كل يوم في ساعة الظهيرة ، وهى تأكل في مطعمها المفضل . ذلك الذي صار هو الآخر مطعمه المفضل . بل تجرأ سيمون يوماً ودفع الحساب .

•••

اقتطعت رشا من وقتها ساعة ، وذهبت لزيارة والدها ، وتحدثت إليه وعن سبب عدم عودته إلى بيته . وقد عرفت من إبراهيم أخيها أنه يقيم في ذلك الفندق الفخيم ، ويهجر قصره .

احتضنها وقبلها وهى تسأله :

– لم تقيم بعيداً عن القصر .

أجاب : أضع خطة سرية لمشكلة تواجهني ، بدأت تؤتي أكلها .

– لا أفهم .

– فيما بعد سوف تفهمين .

ثم سألها : سمعت أنك غادرت القصر أنت الأخرى ولحقت بزوجك المصري .

قالت : ألا تراني أحمل طفله يا والدي .

– وكيف الأمور بينكما ؟ ..

– يمكن أن تقول فاترة . عملنا صباحاً ومساء جعلها فاترة . ربما لا نلتقي إلا أيام الآحاد .

– كان الله في عونك . على العموم أن هذا اختيارك فتحملي .

***

دخل سيمون المطعم ، ورآها لم تطلب طعامها بعد كأنها كانت تنتظره . ولما جلس وجاء النادل وطلبا كل واحد منهما صنفه . دخل سعيد مضطرباً وشاهدها تجلس إلى نفس المائدة مع ذلك الرجل . سبب الغضبة الأولى . توجه إليهما ودماؤه تجري كأنما تريد أن تنبثق من مسامه . تريد الدماء أن تنتحر حتى يغيب صاحبها عن الوجود ولا يشاهد ما يشاهده . يتماسك والاضطراب يطرق بمطارق من حديد على رأسه . ويندفع إليها ويقول ووجهه الأسمر يتحول إلى وجه نحاسي قاتم : ألم أنبه عليك ألا تجالسي هذا الرجل ؟ .. أمسكها من يدها يحاول أن ينهضها بالقوة ، تمنعت وقالت : اتركني .. ما هذا التوحش ؟ .. قالتها باللغة الفرنسية وبصوت واضح كأنما تحاول أن تعبر عن معارضتها لتصرفه . وأفلت سيمون من المطعم كأنما كان يرتكب جرماً . ما كاد سعيد يتلفت ليراه فما وجد غير أنه أختفي. كضباب بدده ضوء الشمس في الصباح الباكر . قالت وهى تتمسك بمقعدها ، وهو يسحب يده القابضة على ذراعها :

– لا داعي لأن نعيش معاً . أرجوك . طلقني .

قال بصوت مخنوق :

– أنت طالق .

الفصل السابع والثلاثون

كراهية وحب

يأست رانيا من حب سعيد لما عادت راشا إليه . وقررت بعد انتهاء امتحاناتها أن تتوجه إلى المغرب . عسى أن تجد هناك في البعد بعض السلوى . لم تظن أنها ستزداد كراهية لزوجها بعد أن تنتقل إليه . وتعيش هناك في أغادير .

فوجئت رانيا برجلها يعيش في شقة من حجرة واحدة وصالة . وقد أثثها بأثاث متهالك .لم يرضى بهذا الوضع المهين ؟ .. إنه يتقاضى أجراً عالياً . ويمكن أن

يعيش في مستوى رفيع . لعل السبب كله ذلك الداء الذي ورثه من أبيه وهو البخل ويبدو أنه أرضعه لأبنائه وفطموا عليه . كانت تظن أن الشركة الفرنسية سوف تستأجر له سكناً وتؤثثه . ولا بد أن يكون فاخراً يليق بمهندس في المشروع . لكنها تركته يتصرف . ورغبة منه في ادخار ما أمكن من مال ، قذف بنفسه إلى هذا المستوى الرديء .وزادها غماً أنها حملت بمجرد أن وصلت ، فأضافت عبئاً جديداً على كاهلها . زوج لا تحبه وحمل لا ترضاه . لكنها لم تفكر أن تتخلص منه . كانت تعرف أن أختها رشا حملت ، فلا بأس أن تكون مثلها حتى لا تتميز عليها . ولا يقال إنها عاقر . ولم ترض بالوضع وطالبته أن ينتقل من هذا المسكن الرديء إلى مسكن آخر يليق بأبنة رجل ثري وعدها ولم ينفذ . كان متلوناً كالحرباء . هادئاً لا يميل إلى الإثارة . يجاريها حتى يمتص انفعالها ولكنه يفعل ما يشاء . ولولا أن تحت يدها ثروة طائلة لما استطاعت أن تأكل ما تشتهيه أو تلبس ما ترغب فيه . إنه حتى لم يفكر أن يعطيها مصروفاً على اعتبار أن يصادفها شيء تريد شراؤه فتكون قادرة على شرائه ، ولم تظهر له أن لديها رصيداً ولو أنه خمن ذلك لكن لم يكاشفها وامتنع عن أن يعطيها بضع دراهم فتلقيها في وجهه فتجرح كرامته وهي جريئة لن تتورع في ارتكاب مثل هذه الحماقات .

•••

طلبت أمها هاتفياً ، سألتها :

كيف الأحوال عندك يا رانيا ؟ ..

قالت : أعيش .. أعيش فقط يا أمي . وكيف حال أخويا وأختي ؟

قالت الأم حزينة :

– رشا طلقت . وأخوك إبراهيم لا أراه . وبسام كما هو يقفل عليه معمله . وما زاد الطين بلة أن أباك عاد من سفره وترك القصر . نزل في فندق . وصرح أنه ينوي الطلاق من امرأته ، لكنه حتى الآن لم يطلق .

– وماذا يقصد من وراء ذلك ؟ ..

– لا ادري .. لم أحاول أن أتصل به . إذا كان يريدني فليأت إلى بيته .

داهمتها بمعلومات كثيرة . ولم تتمكن أن تطالبها بإيصال المعلومة بعد الأخرى . كان يهمها المعلومة الأولى فقط . رشا طلقت . سألتها:

– متى حدث طلاق رشا ؟ ..

– منذ أيام .

– كان من المتوقع ذلك ، رغم أنه غادر القصر ولم يوافق على العودة إليه .

– يا ابنتي هذه خطة رسمها . إنه زواج مصلحة . عاش في خيرنا زمناً وتمتع حتى يناقش رسالة الدكتوراه ، وأدخر أمواله كلها . بل كان يقاسمها المصروف لما ذهبت إلى شقته .

ولما وضعت السماعة . قالت : حان الوقت لأن أفوز بهذا الغيور الشرس . كيف ذلك وأنت متزوجة ؟ .. سهل أن أطلق . لو دفعت له مالاً فسوف يوقع وثيقة الطلاق في الحال . لكنك يا خبيثة سوف تبقين ثمانية شهور حتى تصبحي صالحة للزواج . هل نسيت أنك حامل ؟ ..

لما جاء رأفت من عمله مرهقاً ، ودخل إلى الحمام ليستحم ، خرج وارتدى ثيابه النظيفة . واستغربت أن يرتدي النظيف من الثياب . واجهته بغضب :

– ألن تتحرك من هذه الشقة القذرة الضيقة ؟ ..

قال : انتظري حتى أحصل على العلاوة .

– ومتى ستحصل عليها ؟ ..

– ربما بعد ثلاثة شهور .

– لا .. لا.. أنا لا أطيق أن أنتظر هذه الشهور . سوف أغادر أغادير إلى باريس . حينما تقرر أن تنتقل من هذا المسكن المؤلم حدثني هاتفياً ، وأنا أعود إليك .

قال في برود : كما ترغبين . كانت تنتظر منه أن يحتد ، لكنه قابل قرارها بأعصاب باردة ، كأنه حسب الحسبة في رأسه ، وعرف أنه سوف يوفر أكلها وشربها وفسحها . فوجد أنه سوف يكون رابحاً لو تفضلت وغادرت أغادير . قالت بعصبية :

– أقول لك طلقني . وأذهب ولا أعود .

قال بضعف :
- أنا لا أستطيع أن أستغني عنك .
ولم تكن قد أخبرته أنها حامل وإلا لكان قال لها إنه لا يستغني عن أم ولده .
هل تريدين أن ينشأ بين أبوين منفصلين ؟ ..
هزت رأسها لا تدري إن كانت مستنكرة أم موافقة . ثم اتجهت إلى حجرتها وبدأت في حزم حقيبتها . وهو ينتظر أن تنتهي من إعدادها ليخرجا معاً لتحديد ميعاد السفر . برود متناه . جبل ثلج لا تحركه العواصف .

•••

بحثت رانيا عن سعيد في كل المدرجات والمكتبة ، لعلها تجده ، لكن محاولاتها باءت بالفشل الذريع . وسألت عن عنوانه في شئون الطلاب لكن كان لديهم عنوانه القديم ، وقال لها أحد الكتبة إنه يستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه ، وهو يطبعها الآن لذلك لا يأتي إلى الجامعة . عادت إلى القصر والأمطار الغزيرة تبلل وجهها . كان السؤال الذي يطاردها طول المسافة من الجامعة والقصر : كيف أواجهه وأنا حامل ؟ .. إن الوضع الآن غير ظاهر ولكن بعد شهر أو أكثر سوف يبرز الحمل واضحاً . ومن أدراني أنه سيلتفت إلى ، ربما يعاملني كما عاملني في المرة الأولى . في تلك المرة كانت رشا لا تزال على ذمته أما الآن فقد أرسل لها ورقة الطلاق . هي تعرف مقر سكنه الحالي كيف يتسنى لي أن أعرفه منها ؟ ..
شاهدت رشا جالسة في البهو الكبير .. بالقرب من أمهما . كانت متجهمة الوجه . تغلبت عليها الكآبة بعد ما طلقها سعيد . ربما لم تكن تنتظر أن يطلق كلمة الطلاق . لم يكن أمامها إلا أن تستدرجها لتعرف مقره الجديد فقد ذهبت إلى الجامعة مرات عديدة حتى تعرف متى سوف يناقش سعيد الدكتوراه . ولم تجد أى ملصق يفيد ذلك . هل تأخذ وقتاً طويلاً حتى تطبع ؟ .. قالت تسأل رشا بخبث :
- ألم يحاول أن يتصل بك مرة أخرى ؟ ..

سألت رشا بغضب :
- من ؟ ..
قالت : سعيد .
نفرت من كلامها بهزة من رأسها وإعراض :
- لا .. وإذا حاول فأنا لن ألتفت إليه .
قالت الأم معلقة :
- أنا أدركت منذ البداية أن لا حب في قلب ذلك الرجل . إنه دخل العائلة وانضم إليها وفي قلبه طمع . كان على أقل تقدير يريد ادخار ما تدفعه له الحكومة المصرية من راتب .حتى يعود ثرياً إلى بلده . لا أهمية للمرأة التي يتزوجها ولا لمشاعرها ، ولا أهمية للطفل القادم.
ثم تساءلت الأم : ألم تتفقا على الطفل ؟ ..
قالت رشا ناهضة كأنما ترفض الحديث في هذا الموضوع الشائك:
- الطفل طفلي .ولن يراه أبداً . وعلى العموم إنه بعد أن ينتهي من مناقشة رسالته لن يكون له حق في البقاء خاصة بعد أن طلقني . لن أراه بعد اليوم .. وإلى الأبد .
بخبث سألت رانيا :
- أعتقد أن إيجار الشقة يثقل كاهله الآن .
- نعم . خاصة أنني دفعته لعدة شهور .. وهو يقول إن راتب البعثة تأخر .
- وأين كنتما تسكنان ؟ ..
أسهمت رشا قليلاً ثم أجابت بسرعة كأنما تريد ألا تذكر شيئاً عن المكان .
قالت رانيا : إنها منطقة غالية ..
لمعت عيناها . ها قد عرفت ، وهي ستذهب إليه . لم يكن جائزاً أن تلتقي رشا بسعيد ، إنما كان من المفروض وما يجب أن يقدر أن تلتقي هي به . لقد أحبته حباً قاهراً ، كتمته في قلبها إلا بعض تعبيرات سريعة كانت تصدر منها ، ولم تبح به حفاظاً على التقاليد . أما الآن فعليها أن تلبي نداء القلب . أنت حامل

يا فتاة وفي عصمة رجل . كيف تلبين هذا النداء ؟ ..لا أهمية لذلك . ربما أقول إنني حملت من حبيبي .
تأملت قليلاً حياتها . كراهية لزوجها رغم أنها اختارته ، وحباً لزوج أختها بل طليقها . بعث الحب في قلبها بعدما كانت الكراهية حلت محلـه . لعل الحوادث الأخيرة صهرت الكراهية ، وصنعت منها بلورات جديدة هي بلورات الحب أو هي نواته . ولم لا .. ألا تلاحظ أن الكراهية المستعرة في فؤاد رشا قامت علـى أنقاض حب كبير . إنها ترى ركامه في عينيها . لكن ألا ترى رشا جنين الحـب وهو ينمو في قلبها ؟ .. لا .. لن تلاحظ ، إن مشاكلها تطغي على كل حواسها. ولسوف يبادلها سعيد الحب ، ربما كان عذره في المرة الأولى وقت أن صدها أنه لا يستطيع أن يشاغل ويعشق أختين في وقت واحد ، وها هي واحدة تنسلخ من حياته وأمامه الثانية تفتح ذراعيها عن وسع .

الفصل الثامن والثلاثون
هل تكون آخر القبل ؟

خرجت عائشة تتجول في السوق القريبة من بيتها ، لتشتري تفاحاً وموزاً وأنواع من الخضراوات حتى تطبخها . لقد لفظت هي وإبراهيم عادة الأكل في المطاعم ، تلك العادة التي يمارسها الفرنسيون بكثرة ، تجنباً لتضييع الوقت بين المنزل ومكان العمل في الذهاب والإياب . كانت السيارة تسهل عليهما تلك المهمة ، فصارت تعود هي وإبراهيم إلى شقتهما سعيدين ، ثم تقوم بتسخين المأكولات في الرابعة . وبعد الخامسة يكونان قد انتهيا من الطعام ، ويدخلان إلى الفراش للنوم ساعة . قد يخرجان بعده لممارسة رياضة المشي أو دخول سينما أو مسرح. وقد يسهران يوم السبت ليلاً في إحدى الملاهي الليلية يرقصان .ونادراً ما كان يتركها إبراهيم ويذهب لزيارة أمه ، فقد كانت ترفض دون

إعلان أن تذهب معه . وكان على اتصال دائم بأبيه ، وهو لا يزال يقيم في ذلك الفندق الفخيم .

لقد اتخذت دينا موقفاً من عائشة ، وبادلتها نفس المشاعر الكريهة ، فلم تكن تذهب معه إليها . ولكنها في بعض الأحيان كانت تذهب معه لمقابلة الرجل الكبير في الفندق . ولم يكن الزائرون ينقطعون عنه . وهناك رأت بسام الإبن والأخ الصغير . ورأت رشا . وسألاها عن أحجامها عن زيارتهما فلم تحر جواباً وارتبكت . تدخل إبراهيم وهو يقول : هكذا أرادت أمي أن يكون الجو مستعراً .

أحست وهى تتأمل الخضراوات والفاكهة في السوق أن يدا قوية تضغط على ذراعها ، تلفتت إلى صاحب اليد . وجدت رجلاً كانت قد قابلته من قبل وسألته عن أبيها . يقول لها بهدوء : وجدت مكان أبيك .كنت أريد أن أبلغك عنه ولكني لا أعلاف مكانك .

انتفضت عائشة . شعرت أن الدموع تجري في عينيها وتنزلق من مآقيها رغما عنها ، وهي تستمع إلى الرجل مندهشة ، وسألته بصوت أبحته الدموع : أين هو ؟ ..

قال : في الجزائر .

•••

فضت خطاباً كان قد أرسله أبوها إلى صديق القتال . كانا معاً يعملان في التشييد والبناء . وفصلا معاً عقب مظاهرة أودت بقدم أبيها وأصابت صاحبه بجروح . كانا يطالبان مع المطالبين بتحسين الأجور . دفعهما رجال النقابات الفرنسيين لقيادة المظاهرة ، واختفيا تحت الأقدام .

قرأت

عزيزي حافظ

لقد عدت إلى الجزائر لأنعم هناك بالراحة في وطني ، بعد أن بترت قدمي (انهالت الدموع من عيني عائشة وهي تواصل القراءة)

كنت أريد أن أجد الراحة على صدر ابنتي لكن الهناء ليس سهلاً ، لم أجدها . بحثت عنها دون جدوى . حتى عرفت أنها تبحث عني في باريس . تبحث عني في باريس ، وأنا أبحث عنها في الجزائر . قال الأصدقاء إنها سافرت لتبحث عني في فرنسا . وهكذا أصبحنا في دوائر مختلفة ولن نلتقي . إن كل أملي أن أعثر عليها .. على القلب الحنون . حقاً أنا أعمل وأجد قوت يومي ، لكني مشتاق لأبنتي . لو فرض رأيتها صدفة فأخبرها أن تعود إلى الجزائر لتكون معي . تحياتي الحارة إليك .

تبسمت عائشة لقد وجدت أباها أخيراً . وحاولت أن تكتب عنوان أبيها في الجزائر ، غير أنها لم تجد في حقيبة يدها قلماً ، فأعطاها الرجل الخطاب وهو يقول : خذي الخطاب كله .. ففيه العنوان . أنا نقلته في ورقة عندي أحتفظ بها فيها عناوين الأهل والأصدقاء . كنت أحتفظ بالخطاب على أمل أن أراك . وها هو يتحقق الأمل . تبسم كأنه يبعث بباقة من أزهار السعادة إليها .

•••

أسرعت عائشة إلى بيتها ترتب حقيبة السفر . إنها عائدة إلى الجزائر لا محالة .تريد أن تراه . وترفع عنه عبء السنين . يجب أن يرتاح الرجل . كان يقطع من قوته ويعلمني . أكون جاحدة لو لم أرد إليه الجميل . لكن هل إبراهيم يقبل ؟ .. وهل يرفض إبراهيم أن تصل المرأة رحمها ؟ .

انتهت من إعداد وجبة الطعام . كان إبراهيم في زيارة لأبيه ، يتعرف على ما آل إليه وضعه . وماذا استطاع أن يصل إليه من كشف الأسرار . أخبره الرجل أنه اكتشف الفاعل صاحب الصور المزيفة . وعرف أنها امرأة تريد الاستيلاء عليه من أجل أمواله تريد أن تفرق بين المرء وزوجه . إنها هي التي صنعت الصور وأرسلتها إلى أمك صديقتها . وكيف عرفت أنها هي ؟ .. لم أصل إلى شئ مؤكد حتى الآن . لكني عرفت أنها هاوية من هواة التصوير . وأن حالتها المالية غير مستريحة وهي في الأونة الأخيرة تتقرب مني . تصرف كثيراً ودخلها محدود . تريد كنزاً تغترف منه . طلب منه أن يكون حذراً ولا يتهم الناس عشوائياً قال إنه لم يتهم أحداً بعد لكن يحاول أن يجمع الأدلة . لقد تقرب

إليها ، ولم تبد امتعاضاً ودنت منه .أليس في ذلك تحقيق لأملها القديم يوم اقترفت فعلتها وحاولت أن تدس القطيعة بينه وبين امرأته ؟ ..

أفاق إبراهيم من أفكاره وهو يحاول أن يسترجع ما حدث له مع أبيه عما قريب . وشاهد حقيبة ملابس عائشة راقدة أمامه . وهي تعمل في المطبخ بهمة تريد أن تنجز وجبة العداء .

جاءت إليه بعد أن غسلت يديها ، وأخفت رائحة البصل في ماء الورد وقبلته . وسألها : ما هذا ؟ .. أشار إلى الحقيبة مستغرباً . قالت دون تردد : سوف أعود إلى الجزائر . وجدت أبي .إنه في حاجة إلى ويجب أن أقف بجانبه .

أخرجت الخطاب من حقيبة يدها وأعطته إليه ، قرأه بتمعن ، وقال : وهو كذلك . أنا لن أمنعك عن أبيك ، لكن يجب أن تعودي .

•••

ودعها في مطار شارل ديجول ، وكان قد نفحها ثلاثة آلاف دولار بما قيمته أثنين وأربعين ألف فرنك . وطلب منها أن تؤمن مستقبل أبيها وتعود . وعدته ولكنها لم تكن على ثقة من نفسها . وشكرته على الأيام الحلوة التي قضتها معه . وقال : أنت زوجتي فكيف تقولين ذلك ؟ .. لا شكر من زوج لزوجه . دمعت عيناها وقالت : أنت البلسم يا إبراهيم الذي يداوي كل الجراح . قبلها في شفتيها وقال: أرجو ألا تكون آخر قبلة . لكنها شعرت أنها لن تراه مرة أخرى . فهل ما يعتريها وهم ؟ ..فضلت أباها على زوجها رغم أن شظف العيش ينتظرها مع أبيها .

وانطلقت مع السلم الكهربائي الممتد من أول المطار إلى موقع إقلاع الطائرات . وطفقت تسأل نفسها : هل تعود ؟ .. كان إبراهيم يقف خلفها يقودها إلى مكان إقلاع الطائرة . إنه لا يمانع في سفرها، فقد كان يبحث معها عن أبيها ، كان يتمنى أن يجده في باريس حتى لا يفقدها . وها هي الأقدار تنشط لتضعه في عاصمة دولة أخرى . سألت نفسها : ماذا لو أمنت حياته . إن إبراهيم وافق على أن يرسل له راتباً شهرياً على أن أعود . فهل من الجحود أن أتركه في

وضعه الكئيب وأعود ؟ .. لقد صبت إحساسها في قالب لن يخرج منه . ستبقى معه حتى الموت . وإذا طلبها إبراهيم بعد ذلك فسوف تلبي ، أما قبل ذلك فلا .

الفصل التاسع والثلاثون

الجزاء

إذا ثبت أن سوزان هي التي ارتكبت هذا التصوير المزيف فماذا سيكون جزاؤها ؟ .. هكذا راح يفكر جلال إبراهيم ويناقش نفسه . لو فرض وأثبت أن هذه المرأة هي التي صنعت الصور فهل يبلغ الشرطة ؟ ! .. لن تتردد الصحف في هذه الحالة من نشر الفضيحة . وهل في الأمر فضيحة ؟ .. لا شك . فقد تتمكن إحدى الصحف الصفراء أن تنشر الصور ، ولو أنها ليست صوره . إن الجسد في أغلب الصور ليس جسده . الرأس على الأقل هي رأسه . في هذه الحالة لن يزعم الناس أنني رجل شريف ، إنما سيبقى في أذهانهم ذلك المنظر الرديء وسيقولون إن هذا الرجل كان يخون زوجه . لن يكذبوا الصور ، إنما سوف يصدقونها . لذلك لا داعي لإبلاغ الشرطة . إنما يكفي أن تعرف دينا أن صديقتها مجرمة وكانت تنوي أن تخرب بيتها . جزاؤها في هذه الحالة المقاطعة .

صادفته سوزان مرة أخرى في الفندق . وهي تحمل آلة تصوير متقدمة تقنياً وكان قد عرف أنها تهوى التصوير بشغف . وأمسك يدها وهو يقول : أنت لا مواعيد عندك اليوم . ماذا لو بقيت تشغلي فراغي ؟ ..

سألته وهي ترسم امتعاضة على وجهها :

- وأين آمراتك ؟ ..
- لقد هجرتها .
- وما السبب ؟ ..
- تدير لي ظهرها . لا تريد حباً ولا أجد عندها حناناً .

- وهل ستجد عندي الحب والحنان .
- لا .. إنما الصداقة والوفاء .
- إذا كان الأمر كذلك فأهلاً بك .
- هل أنت مشغولة الأيام القادمة ؟ ..
- لا .. أنا في إجازة .
- وماذا تفعلين هنا ؟ ..
- جئت لأحصل على أجر الترجمة التي قمت بها في المؤتمر السابق عقده من الفندق .
- إذن ما رأيك لو سافرنا إلى منتجع .. نقضي فيه أياماً معاً .
نظرت إليه ملياً ، وابتسمت وهي تقول :
- أنت لا تريد صداقة يا جلال .. أنت تريد عشيقة .
- حاشا لله يا سوزان .. سوف تكوني رفيقتي . رفيقة دربي .
- الحقيقة لقد فاجأتني . يجب أن أجهز حقيبتي .
- إذن لآخذ حقيبتي معي ونذهب معاً إلى شقتك . ونحمل أمتعتنا من هناك إلى المنتجع . ألا تعجبك جزر مايوركا في هذا الوقت من السنة .
-أنت تعرف أنه لم يتسن لي أن أذهب إلى مثل هذه الأماكن . أنا محدودة الدخل .
- على العموم .. هيا بنا . أليس لديك جواز سفر .
- بطبيعة الحال .

•••

تركته في شقتها الصغيرة يتفرج على الصور الكثيرة المعلقة على الحوائط ، حتى تنتهي من إعداد حقيبتها . أدرك فعلاً أنه يخطو خطوات واسعة نحو اكتشاف الحقيقة .. واكتشاف هذه المرأة .هل هي التي صنعت الصور ؟ ..
دخل حجرة الجلوس . وانتقل إلى المطبخ . ووجد حجرة صغيرة دخلها . فوجئ أن الحجرة مظلمة . لما أضاءها . شعر انه في معمل لتحميض الصور . هوايتها إذن التصوير ويمكن أن تكون الهواية بلغت إلى حد تلفيق الصور .

كان قد عرف هوايتها في لقاء بدا عابراً لكنه أدرك أنه مدبر لما استمر زمناً طويلاً مثل لقاء اليوم الذي قد يستمر أياماً . عبث في محتويات المعمل ، لعله يجد أصل الصور التي أرسلتها إلى زوجه ، لكنه لم يعثر على شئ . وكيف يعثر والواقعة مضي عليها سنوات .

دخلت عليه وهى تسأل : أتدخل الحرم المقدس دون أذن سابق ؟

قال ضاحكاً :

– جئت أصلي في المحراب .

– عم تبحث ؟ ..

– لا .. كنت استطلع ملامح هوايتك المفضلة .

– إنني احب التصوير .. أنا فنانة في التصوير .

سألها بسذاجة : هل تعلمته في المدرسة ؟ ..

– إنها ممارسة ثم خبرة يا أستاذ .

ثم قالت : هيا بنا .

قال ضاحكا : حينما نعود من مايوركا .. سوف أقيم عندك .. سأعطيك ألف فرنك في الأسبوع .

– وأين ستقيم . إنها شقة من حجرتين وصالة . وهذه الحجرة التي حولتها إلى معمل . كما ترى صغيرة . إلا إذا أفرغتها من محتوياتها ووضعت فيها سريراً لك .

– أقيم معك ..

– لا تنس يا جلال أنك رجل متزوج .

– أطلقها من أجلك وأتزوجك .

– ذلك يتوقف على رضائي . لن أرضى برجل عجوز مثلك .

– وهل أنا العجوز يا صبية ؟ ..

كيف يصل إلى هدفه ؟ .. لم يجد ما يثبت أصل الصور المزيفة . بل لم يجد صوراً عارية . شاهد صورا للمناظر الطبيعية . شلالات . مزارع خضراء . أشجار باسقة يانعة مزهرة .. ثمار ناضجة . تحب الطبيعة بشكل جارف . لو

لم تكن هي صانعة الزيف فمن يكون ؟ .. إنها قبلت بسهولة أن تسافر مع رجل متزوج . ولا أمل لديها أن يطلق امرأته . أترى أن أمنيتها أن تكون معه تتمتع بنقوده فقط . لا أهمية عندها في تكوين أسرة . إنها كما يبدو فقدت حلم الأسرة أثناء سعيها إلى المال .

•••

رفضت في مايوركا أن يكونا معا في حجرة واحدة . استغرب تصرفها ، ولكنها تنفذ الاتفاق أن يكونا صديقين فقط . بل رفضت القبلات الغرامية . لعلها تريد أن تشوقه لها . أو أن تبدو في نظره امرأة صعبة المنال . امرأة غالية . تريد أن تثبت له أنها ليست عاهرة . لكن كيف سيعرف في مايوركا أنها هي التي زيفت الصور وأرسلتها إلى زوجه . لا . إن السفر إلى مايوركا هو مقدمة لأن يعودا معاً إلى شقتها أو إلى شقة أوسع وتنقل محتوياتها إليها ويبدأ في التفتيش على مهله . يمكن أن يأخذها إلى أى بلد عربي ويعقد قرانهما هناك . ولا من شاف ولا من يدري . حتى تتأكد لها أن علاقتهما شرعية . طبعاً لو ضبط في فرنسا وأثبت مترصدة أنهما زوجان فسوف يحاكم لتعدد الزوجات ، لكن من الذي سوف يترصده. إنه أمر بينهما فقط .

يلتقيان في الصباح ، يمضيان الوقت عند الشاطئ . ترتدي لباس البحر فيكشف عن مفاتنها . بدأ يقارن بينها وبين امرأته . إنها ترهلت ، الآن تخفي جسدها عنه بسبب الترهل في بعض أجزائه . وبسبب التجاعيد التي أصابت الفخذين أو السمنة التي زحفت إلى الذراعين . أما هذه المرأة الشقراء ذات العينين الخضراوين ، والبشرة العاجية فإنها آية من آيات الطبيعة الخلابة .. هل تزوجت هذه المرأة وكيف لم تستلفت رجلاً حتى الآن ؟ .. حاول أن يعبث معها عند الشاطئ وهو يرتدي لباس البحر غير أنها اعترضت .لم يكن شكله منفراً ، كان شعر صدره يبدو أسود يكسو الصدر بغزارة وتبرز من بينه شعيرات بيضاء تتناثر في بعض الاتجاهات . ويبدو عامل السن ظاهراً في صدره المترهل المجعد وكرشه غير الغليظ . لكنه مقبول شكلاً . قالت : لقد اتفقنا على الصداقة . قال : ما رأيك لو تزوجنا ؟ .. قالت : أنت رجل متزوج .

- أطلقها .
- أنا لا أرضى .
- أتزوجك وأعيش معك في أى بلد عربي . مادمت لا ترضين أن أطلقها وعلى العموم لوعدنا إلى باريس وعشنا هناك ، فمن سيعرف أننا متزوجان .
- لن أنكر العلاقة الزوجية إذا عدنا .. وسوف تبلغ زوجك الشرطة بوضعك المخالف . وسوف يقبض عليك . (تعرف كل شئ ، واعية بكل الأضرار ، يبدو أنها تريدني خالصاً) .
- لا تخافي إن نفوذي كبير . في هذه الساعة يمكن أن أرحل عن فرنسا بأسرها وأنت معي .
- إذاً دعني أفكر . (لو كانت صاحبة الصور هل تطلب مهلة للتفكير وقد تحقق حلمها . ولكن ألا يجوز أن ذلك مكر منها . إنها تتروى حتى ينفذ الصبر) .

إنه لو تزوجها وثبت أنها صاحبة الصور المزيفة فسوف يطلقها شر طلقة . وماذا لو أبلغت الشرطة عنك نكاية فيك على اعتبار أنك ضالع في جريمة تعدد الزوجات ؟ .. على العموم لو فرض وتزوجتها فقد نالت غرضها . والنعيم الذي تقيم فيه الآن هو دليل على أنها نالت غرضها من وراء دس الصور لدينا . لا يبدو أنها شريرة . إنها لم ترتكب فاحشة . بل إنها لا تراودني عن نفسها . ربما كانت هذه حيلة من حيلها حتى يقع الصيد في الشبكة .شئ محير . أتوقف وأبتعد عنها أم أتمادى . لو تماديت واكتشفت أنها وراء الجريمة فسوف أصاب بنكسة كبيرة . ما دمت تعرف مقدماً فلن تصاب بأى أضرار . وكشف الحقيقة يريحك . وما الفائدة ما دمت لن أضرها بشيء غير الابتعاد عنها ، لكني اشعر أنني أتعلق بها.

الفصل الأربعون
تصرفات مجانين

كانت السماء مشرقة في ذلك اليوم ، عقب أمطار قاسية غزيرة سقطت بالأمس . وكانت تنتظر من بعيد مجيئه . جاء بالفعل – كما توقعت – بعد الساعة الواحدة . وقت إخلاده للنوم . كما كان يحدث أثناء تواجده في القصر . جاء ماشياً . أتريه يترحم على تلك الأيام التي كان يقود فيها سيارة من السيارات الكثيرة في القصر . وتقدمت بسيارتها ، وتوقفت ، ونزلت منها مسرعة وهى تقول :

– سعيد .. سعيد .

توقف . لا يدري أيصافحها بعد أن طلق أختها ، أم أن الأمر غير مستحب . ولكنه وجد رانيا تحتضنه كأنما لم يكن يوماً زوج أختها ، وكانت محرمة عليه . احتضنها وهو مستغرب تصرفاتها . هذه الفتاة لا تكتم عواطفها . سألته وهو لم يتكلم بعد :

– هل تسكن هنا ؟

قال : نعم . ألا تعرفين ؟

قالت مدعية الجهل :

– وكيف يتسنى لي أن أعرف وكنت في المغرب ! !

ترك أحضانها وهو يقول :

– وكيف حال زوجك ؟ ..

قالت مصطنعة القرف بشفتيها :

– لقد انفصلنا ..

عبارة غامضة لا تفيد ما إذا كان قد تم طلاقهما أم لا يزال العقد ساري المفعول . لم يحاول أن يستزيد في التفسير . سألته : هل كنت عائداً إلى بيتك ؟ .. أجاب : نعم تفضلي . استطلعي الشقة .لم تمانع . كانت تريد أن تنفرد به لتبثه لواعجها .

•••

سألها : أتغديت أم أصنع لك فنجان قهوة ؟ ..

قالت : اتركني أصنع لي واحداً ولك آخر .

قال : لا .. أنا لا .. ربما أخلد للنوم قليلاً لأقوم وأراجع بروفات الرسالة .

ووضع حقيبة يده على المائدة .

لم تحاول أن تشير من بعيد أو قريب إلى علاقته بأختها رغبة منها في عدم تجديد الأحزان . سألت : أنت أنهيت من الرسالة.

– أقوم بطبعها الآن .

–وهل ستسافر إلى مصر بعدها ؟

– أمر لا شك فيه . لا بد أن أعود . فأنا معيد في جامعة المنيا .. هناك .

– ألن تعود إلى باريس ؟

– ولم أعود ؟

– تعود من أجل طفلك أو طفلتك ؟ .. ألا تعرف أن رشا حامل .

– نعم .. نعم .. لكنها قد تمنعه أو تمنعها عني . إن لها الحق في حضانته أو حضانتها ما بين تسع سنوات أو إحدى عشرة سنة .

دخل حجرته ليبدل ثيابه ، دخلت وراءه .

***

لما عادت كانت كل مشاعرها متأججة . حصلت اليوم على حلم حياتها . لم يتردد مثلما تردد المرة الأولى . وشجعته عبارة : انفصلنا . ويبدو أنه اتبع عبارة أمض مع من يحبك ولا تمض مع من لا تحبه ، فهذه الفتاة متيمة به تبدي الإعجاب والحب والغرام ولكنه لم يكن يستطيع معها شيئاً . كانت أختها تحول بينها وبينه .

لم تشر من بعيد أو قريب إلى أنها التقت به . كانت أمها تقرأ في جريدة الصباح . وأختها تتأمل شاشة التلفاز ، وهى لا تدري ماذا تعرض . كانت تفكر وتتأمل حياتها التي انهارت فجأة بسبب جمود عقل صاحبها وتحررها الذي يخالف تقاليده . هل سيعيدها إلى عصمته قبل أن يسافر إلى بلده أم سوف

يتركها إلى الأبد ؟ .. يبدو أنه لا يريد أن يعيد المياه إلى مجاريها . يريدها أن تنساب في صحراء تبتلعها ، حتى يموت الطرف الآخر عطشاً .

كانت أمها – هي الأخرى – تنظر إلى الجريدة . وتصطنع أنها تقرأ أخبار شيراك ، ذلك الذي يريد أن يدخل المجتمع الأوربي في موضوع السلام بين إسرائيل والعرب لذلك يجوب الشرق الأوسط . ولكن نتانياهو لا يأبه به ويصر على أن أمريكا هي الحليف والسند . غير أنها لم تفهم مما قرأته شيئاً ذلك لأنها كانت شاردة مع الرجل الذي هجرها بعد ثلاثين سنة من العشرة . وأدعى أنه وضع خطة سرية لإسقاط صاحب الصور المزيفة في قبضة يده . وأن خطته بدأت تؤتي أكلها . وأن عليها أن تنتظر وقتاً لن يطول حتى يقبض علي المزيف .وماذا سيفعل إذا قبض عليه ؟ .. إنه لن يتحمل فضيحة الجرائد الصفراء ، لذا لن يبلغ الشرطة بموضوع المزيف حتى لا يتسرب الخبر إلى الصحف . وقد تنشر صورته في هذا الوضع المشين رغم أنه ثبت أنه ليس هو صاحب الأوضاع المخجلة في الصور . إنه سيمتنع فعلاً عن الإبلاغ ، فماذا سيفعل ؟ .. يا ترى من يكون أو من تكون القائم بالتزييف ؟ .. يبدو أن الخطة من صنع خياله ، كل ما يريد هو أن يهجرني . يريد أن يؤدبني لأني أدرت له ظهري .

جلست رانيا تتأمل التلفاز مع رشا .وسألت : هل أكلتم ؟ .. قالت رشا : ليس لدى شهية . إذا كنت تريدين أن تأكلي فأبلغي الخادم بذلك .

قامت وأبلغت الخادم أن يجهز لها المائدة . إنها اليوم تريد أن تأكل الكثير . لقد بذلت مجهوداً كبيراً لم تبذله يوماً مع زوجها . وتشعر أنها جائعة أكثر مما يحدث . وسألت نفسها : هذا الطفل الذي في أحشائي هل أنسبه إلى سعيد ؟ . إنه لا يعرف أنني حامل وأن الجنين ابن رأفت شاكر . ماذا يمنعني أن أدعي أنه طفل سعيد ؟ ..

فقد يحدث أن يطلقني شاكر وأجد أمامي سعيداً . فإذا ما تزوجته ظن أن الطفل منه فيعامله معاملة حسنة رغم أنه سينسب إلى أبيه الفعلي. وهل هذا شئ رائع أن يعتقد رجل أن طفلاً ليس أبنه أنه فلذة كبده ؟ .. يا لك من شريرة يا رانيا . ألا تدركين أن الأمر قد يصل إلى ابنك فوما بعد فيعيش بالعذاب لأنه لا يعرف

من أبوه ، يحيا في حيرة يتألم ولا يدري أنه ابن زنا أم ابن حلال ؟ .. ولكن حتى لو لم أصرح بذلك لسعيد فسوف يتوهم هو ذلك لأني لم أنجب فور تزوجي .. اتركيه لوهمه ، ولا تتصرفي تصرف المجانين . ألا يكفي ما فعلت اليوم وأنت امرأة متزوجة .

الفصل الحادي والأربعون
ابتزاز بطريقة ناعمة

رآها تجلس في شرفة جناحه في الفندق المطل على البحر ، تقرأ في كتاب باللغة الفرنسية . وهو خالد إلى النوم وقت القيلولة . جاء إليها وهو يقول :

– ألا تنامين أبداً ؟

قالت : عادة لا أنام .

لم يكن لديها مانع أن تترك جناحها وتدخل إلى جناحه ، وهناك تقرأ وهو ينام . كان يمكنها أن تحافظ على نفسها من عبث الرجل . ولم يكن جلال صلفاً لكنه لم يكن حجراً كان يتقد ناراً وتساءل : ماذا تريد مني هذه المرأة ؟ .. أتريد أن تتمتع بنقودي دون أن أمسسها ؟ .. إنها إذاً بلهاء لو ظنت أنني سأستمر على هذا المنوال .

سألها : هل لديك شهادات ؟ ..

قالت : نعم .. ليسانس الآداب في اللغة الفرنسية .

– وما قذف بك من لبنان إلى فرنسا ؟ ..

– ظروف الحرب . مات أبي وأمي وأخوتي في انفجار قنبلة . كنت بالصدفة خارج البيت . ولما عدت لم أجد أحداً . انهرت . وبكيت . واكتأبت . ولكن لا الحزن نفع . ولا البكاء أعاد أو بعث أحداً . قررت أن أهاجر . وأعمل مترجمة . ترجمت في بعض المصارف ، لكن لم يعجبني هذا العمل . تعرفت وقتها بزوجتك ، امرأة طيبة حنونة ، عطفت على فعلاً . ولولا أنني شعرت بالهوة

الاجتماعية التي تفصل بيننا ، لكنت استمررت في صداقتها . وأنت ماذا تحمل من شهادات .

- سمعتها في فيلم من الأفلام المصرية : شهادة أن لا إله إلا الله .

ضحكت وقالت : يا لك من ساخر .

سألها وهو يتصنع الغضب :

- أستجلسين كثيراً تقرئين في كتابك ؟

- أتريد أن نذهب إلى أى مكان ؟

- أريد أن نذهب إلى الفراش .

- هذا ممنوع يا جلال بك .

انفجر غاضباً : لا تريدين أن تتزوجي .. ولا تريدين أن تدخلي معي إلى الفراش .. ماذا تريدين مني بالضبط ؟

- أنت عرضت على صداقتك وأنا قبلتها .

- الصداقة بين الرجل والمرأة لا تكون بهذه الصورة .

- أنت لم تعرض على الحب يا جلال .. تذكر . لو كنت عرضته على لرفضت أن أصاحبك .

- أنت الآن في حجرتي . ألا تخشين أن أهاجمك وأغتصبك ؟ ..

- إنني سوف أقاومك . وحينما أفلت منك لن تجدني معك ، سأعود إلى باريس

- سأبلغ الفندق أن لا صلة لي بك ، وعليك أن تدفعي .

- أتظن أنني غير قادرة . أنا لا أخطو خطوة بلا حساب . أعرف جيداً أنك قد تغدر بي لأني أعرف ما في رأسك .

ليس هذا غدراً ، لأن ليس من بنود الصداقة أن يدفع الصديق إيجار فندقه وكل مستلزمات حياته . إن الصداقة فكر مشترك ، هي النصح وقت اللزوم .

- تلك هي الصداقة بين الرجل والرجل . أما بين ...

قاطعها وهو يقول : يا سوزان .. أنا بشر . لا يمكن أن أرى امرأة بهذا الجمال ، وتلك الرقة ، وهذه الأنوثة ، ثم أقف أتفرج عليها .

وضعت الكتاب على المائدة ، وقالت : قم .. خذ ما تريد .

- لا .. ليس بهذه الطريقة .

***

نزلا ليتناولا طعام الغداء . يطلب لها ما تشاء وهى لا تعطيه شيئاً . يبدو أنها صنف من النساء يأخذ ولا يعطي . شعر أنه تعلق بها . حاول كبح جماح نفسه فلم يستطع . كانت فارعة الطول ، متناسقة الأرداف . ضامرة . يبدو بياضها كأنه سن من العاج اللامع .تجذبه إليها بشدة . قال يحاول أن يكشف أغوارها :

- هل هوايتك للتصوير كانت قبل الليسانس أم بعده ؟ ..

- لا.. إنها هواية تلازمني منذ الصغر . أتقنتها اتقاناً تاماً . لقد سافرت من بيروت على أساس أن أعمل في مجال التصوير لكني لم أجد عملاً .

- هل تستطيعين إتقان الخدع التصويرية ؟

- لا أفهم ..

- مثلاً أن تضعي رجلاً مع امرأة . ذلك من صورة .. والأخرى من صورة . ولا صلة لهما بالآخر .

- هذا أمر سهل .

- إذاً ما رأيك أن نرسل إلى زوجتي صورة بهذا المعنى ، ونقول لها استيقظي يا نائمة إن زوجك يخونك .

قالت غاضبة :

- لكن من السهل أن نتصور معا دون ما حاجة إلى هذه الخدع .

- هل ستقبلين أن أتصور معك في أوضاع مخجلة ؟

- ماذا تقول يا جلال ؟ .. أنا لا أقبل ابتداء أن أفعل هذه الخدع .

- ألم تفعليها أبداً .

- ماذا تقصد ؟ ..

- لا .. لا شئ .

- وماذا تنوي أن تفعل بعد ذلك لعلك تعتقد أن امرأتك ستطالبك بالطلاق . ثم تتزوجني دون ما حاجة إلى أن تكون مهدداً بجريمة تعدد الزوجات .

- شئ من هذا القبيل .. وحتى لا يقول الأولاد أنني طلقت أمهم ، وواضح أنها التي طلبت ذلك .
- ولم لا تطلقها إذا كنت تريد ، فأنت من حقك ذلك .
- أنت تنسين أنني في فرنسا . حقي ذلك في بيروت وليس في فرنسا .
- أنت تسلك طريقاً ملتوياً . أذهب وأعرض عليها الطلاق وأعتقد أنها سوف توافقك .
- ونتزوج بعد ذلك .
- وقتها أفكر . .
- أفكر .. أفكر .. هذا شئ يغيظ ..

إذا لم تكن هي التي صنعت الصور المزيفة وأرسلتها إلى زوجتي فمن يكون ؟ .. هل هو مروان ؟ .. أأكون قد ضيعت وقتي معها ولن أعثر على شئ ؟ .. أأكون ماشياً في سبيل لا صلة لها بالجريمة. ولكن يحدث ذلك بعد فوات الأوان . ارتبطت بهذه الفاتنة رغم أنني لم أمسسها . لا أعرف . امرأة ترفض أن يلمسها صاحبها الرجل وتقبل أن ينفق عليها . ما هذا الفجر؟ . . إنه ابتزاز بطريقة ناعمة .

•••

قرر جلال أن يعود إلى باريس ، بعدما فشل في إثبات أن سوزان هي المتورطة في تزييف الصور . لا يبدو على الفتاة أي ارتباط بينها وبين الجريمة . حقاً هي قادرة على التصوير وقادرة على الخداع في التصوير لكن أخلاقها مختلفة ، لا يستشف منها أنها شريرة . تأبى أن تكون ساقطة . فهل امرأة تنفر من ذلك ترتكب حماقة التفرقة بين المرء وزوجه ؟ .. أنت فقط تبرر لها وتريد إخراجها من حيز التهمة. قال لها : ما رأيك أن نعود ؟
- إلى أين ؟ ..
- إلى باريس .. مرة أخرى .
- كما تحب . الأمر أمرك . أنت الداعي . ويمكن أن تقرر وقتما تشاء .

ومال على شفتيها ، وطبع قبلة ، وردته ، لكن عاد وطبع أخرى فقالت :

- إننا لم نتفق على ذلك يا جلال .
قال وهو يضمها إليه :
- وهل أصلاً اتفقنا على شئ ؟

الفصل الثاني والأربعون
الهروب من الخيانة

أصابتها رعدة عند الفجر . طيرت النوم من عينيها . كيف ارتكبت هذا الإثم ؟ .. كيف تخون زوجها ؟ هل لأنها لا تحبه .لم إذاً لم تصر على الطلاق ؟ .. لكنها طالبته بذلك ورفض . فهل يكون جزاؤه أن تحنث بعهدها له ، ذلك الذي وقعت عليه في الوثيقة الرسمية.

تقلبت في فراشها تحاول أن تنام . لاحت لها فكرة لم تكن تراودها من قبل أن تنهض وتغتسل وتتوضأ وتصلي الفجر . إنها لا تعرف شيئاً عن الصلاة . أبواها لم يعلماها . نشأت هكذا تعرف أنها مسلمة. وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . لكن لم يكن هناك فرد في العائلة يركع أو يسجد . ربما كانوا يعطفون على الفقراء ولكنهم لم يفكروا أن يصوموا رمضان ، حتى اللغة العربية التي أصر والدهم على أن يتعلموها لم تكن تدفعهم إلى القراءة في الكتاب المقدس . إنهم بشر تغطيهم قشور دينية ليس إلا . ولعل ذلك هو السبب في ضعف الضمير لديها وهو الذي دفعها إلى ارتكاب الإثم ، والعدوان على حرمة الزواج . ولكن كأن الضمير تيقظ فجأة كأنه كان مدفوناً عنوة وقاوم الدفن وانبثق .

صلت وكانت لا تعرف كيف تصلي . لكن السور القليلة التي تحفظها أسعفتها . ولو أنها شعرت أنها فقدت كل ما تحفظه . كأن الشريط المخزون في رأسها حذف ، واكتفت بسورتي الإخلاص
والفلق في الركعتين الأولى والثانية من صلاة الفجر .

قررت أن تهرب من الخيانة . إنها لو استمرت في باريس فلسوف تذهب كل يوم إليه . سوف تحاول أن تمتص رحيقه قبل أن يعود إلى وطنه . إنها تدرك أن حبيب القلب لن يعود . سوف يترك ولده في أحشاء طليقته ، ولن يهتم بشيء بعد ذلك . إنه انتهازي عاش على حسابها فترة من الزمن ، استطاع فيها أن يدخر ثروة . ورغم عيوبه الواضحة لا يمكنها أن تقهر حبه في نفسها طالما هي في باريس . سوف ترجع إلى المغرب لأنها تأسف على ما ارتكبته وترفض أن تكرره . إن في أحشائها جنيناً يجب أن ينشأ في ظل امرأة طاهرة لا امرأة ساقطة .

انتظرت طويلاً حتى تجمعت العائلة على المائدة . بسام يستيقظ مبكراً هو الآخر وينتظر ، لكنه يجد ما يشغله في معمله . وأختها هائمة في حياتها الجديدة . حياة امرأة مطلقة . وأمها هي الأخرى سادرة ، تفكر في وضعها كامرأة انفصل عنها زوجها ، لا تدري ماذا هي فاعلة . أما هي رانيا فإن وضعها الاجتماعي ممتاز فلم لا تحافظ عليه . إن رأفت يمكن تدريجياً أن يكون إنساناً سوياً . ربما نشأته الأولى مع امرأة أب دفعته أن يكون مفرطاً على نفسه حتى تكون لديه ثروة لكن بالملاطفة والخداع والإقناع وبث الأمان في النفس ، يمكن أن يتغير ، ويصبح المال لا قيمة له عنده ، خاصة أنه متزوج من ابنة مليونير بل ملياردير يغدق على أولاده بسخاء ، فلا مبرر له أن ينزعج من صرف المال خاصة إذا كان يتجدد مصدره .

قالت رانيا :

– سوف أعود إلى المغرب .. اليوم .

سألت الأم باستغراب :

– لم يمض عليك يومين . كيف تبدلين رأيك بهذه السرعة وفي ثوان . ماذا حدث ؟ ..

– لا شئ يا أمي . كل ما في الأمر أنني أريد أن أبقى بجانب زوجي .

كانت حدثتها عن بخله والشقة الحقيرة التي يسكنها وحرصه الزائد على الادخار . سألت الأم :

وهل تستطيعين أن تتحملي هذه المعيشة الدنيئة التي يحيك فيها ؟
- سوف أغيره .
قال بسام ضاحكاً :
_ إن لم تغيره باللطف فبالسيف . يا أمي .
- كما تشائين يا أبنتى .

•••

سقطت المرأة الأخرى . سقطت الأخت الأخرى . كنت تمانع في البداية أن تشاغلها ، حتى لا يكتشف أمرك ، ويصير الغزل فضيحة في القصر . ويعرف الناس والمجتمع والجامعة شيئاًعن عشيق الأخت وزوج الأخرى . أما الآن وقد طلقت المخروسة الكبيرة فلا بأس أن تلتف حول العروس الصغيرة . المهم أنني لعبت اللعبة حسب الأصول ، ولو أن الغرامة جاءت في السنة الأخيرة . لكن ها هي على وشك أن تنصرم ، ويعود الذئب إلى بلده . لو كانوا يعرفون أنك ذئب لربما خسفوا بك في سابع أرض . لكنك كنت متخفيا تمام التخفي في ثياب الحمل الوديع .

انتظر في اليوم التالي أن تأتي رانيا من جديد ، تجدد حبها . كم أطلقت من آهات . وكم بثته من لواعج . وكم هتفت : أحبك .أحبك أحبك .صرحت بحبها بعد طول عناء وكثير من التكتم ، لكن رانيا لم تأت .

أدار قرص الهاتف من الشارع . يعرف الرقم جيداً . إن أكثر من سنة قضاها مع تلك العائلة الغنية . ردت رشا . إنه يعرف الصوت جيداً لكنه قفل الاتصال. وضع السماعة على الفور . لم ترد رانيا . إنها قالت له إنها سوف تنتظر منه مكالمة هاتفية . سوف تنتظر بجانب الهاتف . سوف يطول شوقها لو لم يطلب ويحدد لها ميعاداً جديداً . أين ذهبت ؟

حاول أن يدور حول القصر لعله يستطلع وجودها ، لكن السكون كان يريم على المكان . لم تخرج إلا رشا في الصباح تقود سيارتها . وبعدها خرج بسام واضعاً أقلاماً أمامه على رف السيارة . أسرع من جديد إلى الهاتف يطلبها .

لكن في هذه المرة ردت الأم بصوتها الأرستقراطي ، فوضع السماعة على الفور . علقها كأنما يخشى أن تعرفه . أين ذهبت ؟ ..

انتظر طويلاً وهو يعرف أن الأم تتمشى في الحديقة في الساعة العاشرة . وأسرع من جديد إلى الهاتف . ردت الخادم فسألها :

- سيدة رانيا من فضلك .

ردت بلغة فرنسية :

- سيدة رانيا ليست هنا .

قال يسألها :

- أين هي ؟

أجابت الخادم بسذاجة كأنما تريد أن تنهي المكالمة :

- السيدة سافرت .

- إلى أين سافرت ؟

شعر بامتعاض الخادم في نبرات صوتها :

- عادت إلى المغرب .

وكأنما شعرت الخادم أنها تورطت في التصريح فسألت :

- من المتكلم ؟

وضع السماعة وداخله يغلي .

الفصل الثالث والأربعون

استرداد العطاء

ماذا يفعل الآن ؟ .. لقد تورط . ظن أنه ذئب فتحول إلى حمل . كان يريد أن يفترس سوزان ، فإذا بها تفترسه . إنه تأكد الآن أنها صاحبة الصور المزيفة ولو أنها لم تصرح بذلك . لقد أدرك أنها تريد أن تفرق بين الرجل وزوجه ، وتفوز هي بالرجل . وأراد أن يكشفها فإذا به يصادف ذئباً في ثياب حمل . كانت ماكرة أكثر من اللازم . ثم جعلته لا يستطيع أن يستغني عنها . اصبح في

حاجة ماسة إليها . شعر أنها تعيد إليه شبابه الضائع بعد طول تمنع من امرأته ،ولم تكن سميرة لها قدرتها على بث المتعة في القلب المكلوم. لما صمم أن يعود إلى باريس ، وجد نفسه غارقاً في عسلها . كادت الذبابة أن تفلت من العسل لكنه حال دون ذلك . لعلها شعرت أن مخططها سوف يفشل لذلك بدأت تعطي دون أن تأخذ حتى تضمن أن تسترد كل ما أعطته في وقت لاحق .أسكرته بخمر المتعة . وكان يحجم أن يبحث عن المتعة في داخل فرنسا ، حتى لا يكتشف أمره أمام عائلته . وها هو يمارسها مع امرأة تعطى بمقدار . حقاً انطبق عليه المثل جئت لاصطياده فأصطادك .

والآن هل يحنث بوعده لها ويفلت إلى باريس ، أم يحقق الوعد ويذهب بها إلى المغرب ويتزوجها هناك . لكن في المغرب يعيش زوج رانيا وربما لحقت به ، وقد يكتشف أمره هناك . أيذهب إلى مصر ويتزوجها هناك ، أم يلقى عليها القنبلة الكبرى وهى الفراق إلى غير رجعة . لم تسببت فيه من أذى لحياته العائلية . حيرة تعصف به . لا يستطيع منها فكاكاً . أخيراً قرر البقاء في مايوركا على أن يبقى الوضع على ما هو عليه خاصة أن سوزان لم تعترف بالجريمة فيعاقبها أو يتأكد من براءتها فيضمها إليه .

***

في الأوقات الأولى من لقائه بها كان يشعر بضآلة أمامها رغم ثرائه الفاحش . وكان ذلك الثراء يخفف قليلاً من هذا الشعور . زوجه دينا لم تكن مثقفة وإن كانت متعلمة لكن تعليمها لم يكن يتعدى البكالوريا . أما هذه فمثقفة ومتعلمة في نفس الوقت . لكن خبرة السنين التي يمتلكها جعلته يتصرف بحذق . كان فقط يغير منها إذا ما جلست تقرأ كتاباً من ستمائة صفحة وباللغة الفرنسية . إنه يتكلم الفرنسية الدارجة بطلاقة ، لكن إذا طلب منه أحد أن يكتبها فسوف يخطئ أخطاء كثيرة في الهجاء وتصريف الأفعال والالتزام بقواعد اللغة . غير أن المال يصرف العيون عن مثل هذه المساوئ . ولم يكن معارفهما إلا قليلين لذلك لم يكن يشعر بالضآلة إلا حينما ينفرد بها وتكلمه في مواضيع علمية . أما حينما تسكت ويهيم بها وتهيم به فإنه يشعر أنه ذو خبرة لا يجاريه فيها أحد .

وقد ذاق عسلها ثم وجدها فجأة تتمنع . وطال البعاد وشعر أنها ترفض وتستمر في التمنع . قال :

- هيا بنا نتزوج هنا في مايوركا .

انفرجت أساريرها بعد تجهم طويل وقالت :

- أتحكي بجد .

- نعم أحكي بجد .

رآها بعد توثيق العقد مبتهجة . تبدلت كأنها كانت تنتظر هذا اليوم بفروغ صبر . لا شك أن العلاقات الشرعية تبعث على الاطمئنان . لكن يبدو أنها كانت ترفض الزواج هذه الفترة الطويلة من عمرها لرغبتها في صيد ثمين . وقامت بفعلتها منذ سنوات لكن لم يتحقق شئ. وأخيراً لما حققت مرادها ، زحفت السعادة إلى قلبها وغمرتها كالفيضان . وقال جلال لنفسه ، وهو يضمها إليه : هذه هي الزوجة الثالثة في حياتك يا جلال . الأولى تركتها وانفصلت عنها بزعم أنك تبحث عن المجرم . والثانية هجرتها لأنها تلح في تأمين حياتها ومستقبلها رغم رغد العيش الذي تحياه ورغم إتمام هذا التأمين لكنها تطلب المزيد . والثالثة هي المجرمة التي طعنتك في حياتك الزوجية وبدلاً من أن تحاكمها سقطت في شباكها . وكيف عرفت أنها المجرمة ؟ .. أمر غير مؤكد وما دامت لم تعترف فلا اتهام هناك خاصة أن ليس لديك أدلة . ولو أن هناك قرائن لكنها لا تعلو إلى مرتبة الأدلة . أنت تحاول أن تبرئها .. أنت تحاول أن ترفع عنها التهمة ..

•••

أدرك أنها حريصة . بدأت تسترد عطاءها دون أن تشعره أنها تأخذ ، ولا تلح في مطالبها ، تجعله يشعر أنه يمنح لا يؤخذ منه عنوة . ولم يجد مانعاً أن يعطيها فقد أصبح هائماً بها . امرأة اختزنت أنوثتها زهاء خمسة وثلاثين عاماً وها هي تفيض بها عليه . فألا تستحق أن تؤمن مستقبلها خاصة أنه قريب من الدار الآخرة . وماذا جنت سميرة حينما حاولت أن تؤمن مستقبلها . لا. سميرة كانت جشعة ، أما هذه فلم تكشف عن الطمع بعد . وهو يجود عليها عن حب .

يبدو أنك كنت قد مللت سميرة ، أما هـذه فهي تبهرك . وأم أولادك ، ألم تكن تبهرك ؟ .. لا .. لم تكن . كـانت متغطرسـة ، تكبرت دون داع وزهـدت دون مقتض . لعلك تزوجتها رغبة في السيطرة علـى أموال أبيهـا بدليل أنك كنت تبحث عن اللذة خارج فرنسا . وكم كانت أسفارك كثيرة ، وعلاقاتك العاطفية لا تعد ولا تحصى . هكذا . والسبب هو المال ، إنه مفسدة . هل أتنازل عنـه ؟ .. هراء بالطبع .

قال لها وهما يسكنان في شقة دائمة :

– سوف نبقى حتى نهاية العمر في مايوركا .

– أنا معك أينما ذهبت .

ثم سألت : ما رأيك لو أقمنا مشروعات استثمارية في هذه البلدة ؟

سأل : مثل ماذا ؟ ..

– فندق مثـلاً إن السياحة هنـا هـي مصـدر رزق أساسـي . وسـوف يكسـب المشروع تماماً

– إن الأمر يقتضي أن نبحث الموضوع من الناحية القانونية .. ومـن الناحيـة الاقتصاديـة . نعرف مشروعية إقامـة هـذا المشـروع . ونبحـث عـن الجـدوى الاقتصادية منه . أنا لم أعمل في قطاع الفنادق، ولكن لا بأس أن نعمل .. قومي وأنهضي واعملي .. أنت المديرة.

امرأتان في حياته كانتا خاملتين . أما هذه المرأة فلم تستمر في الكسـل ، تُريـد أن تعمل . وعملها مثمر . رغـم مـا لديـه مـن مـال يكفـي أن يجعلـه ينـام أربـع وعشرين ساعة متواصلـة ويخلـد فـي لحظـات الأفاقـة للكسـل . ولكنهـا ترفـض الكسـل بشـدة ، لقـد بـدأت العمـل فـوراً بـدأت تتصـل بالمحــامين والمستشــارين الاقتصاديين ومهندسي البناء .

الفصل الرابع والأربعون

وراء الجوهرة

شعر إبراهيم بفراغ كبير ، بعد رحيل عائشة إلى الجزائر . ولم يكن انعزالياً بطبعه مثل أخيه بسام ، لذلك قرر العودة إلى قصر أبيه خاصة بعد أن هجره . واصبح لا يعيش فيه إلا بسام وأمه ورشا . وبسام لا يعرف شيئاً في المسئولية . حياته في الحاسب الآلي والأفلام التي يؤلفها . وإذا كانت له علاقة عاطفية مع جانيت ، فهي علاقة لا تدفعه إلى المجتمع وكأنها تغذي انعزاليته لذلك قرر أن يعود إلى قصر أبيه .

سألته أمه مبادرة :

– أين عائشة ؟ ..

امتنعت عن أن تقول : أين زوجك ؟ .. فهي لا تعترف بها غير رفيقة فقط .

قال بضجر : – سافرت إلى الجزائر لرؤية أبيها .

سألته : هل لها أب ؟

زمجر قائلاً : أمي !! ..

انكمشت المرأة فقد كانت تخاف إبراهيم ، وتخشى غضبه .

سأل رشا : هل من أخبار عن طليقك ؟ ..

قالت : لا أعرف شيئاً عنه . يبدو أنه ناقش الرسالة وحصل عليها وسافر عائداً إلى بلاده .

– يجب أن تعلمي أنه بعد شهور سيكون لك ابن أو ابنة منه .

– لقد أسقطته من حسابي تماماً . إن ولدي سوف أرعاه وأعلمه وأنميه وأقوم على رعايته . لا أريد منه حتى فتات خبز .

قالت الأم متدخلة :

– كنت أدرك من البداية أن هذه الزيجة مصيرها الفشل . ما كان يجب أن تتزوج أجنبياً .

قال إبراهيم ورشا تستمع :

- لا.. لا .. يا أمي . كان من الممكن أن تفشل حتى لو كان مواطناً فرنسياً . لقد كان هناك تفاوت بينهما .. في الثقافة .. في المال .. إنه عاش تقاليد لم تعشها رشا . وهي لها عادات لا يعرفها سعيد بل قد يستنكر بعضها .

قالت رشا غاضبة :

- أرجوكما .. أقفلا هذا الموضوع . إنه يثيرني .

ونهضت ذاهبة إلى حجرتها . وهناك بكت حظها المنكود . كانت بالفعل يجب أن تتروى . على الأقل كان من الواجب أن تمتنع عن الحمل وكان الأمر بيدها لكنها أطلقت العنان لهواها يفعل بها ما يشاء دون ما ضابط . كان يجب أن تتروى على الأقل حتى ينتهي من دراسته وتعرف مصيرها معه .. أستذهب معه إلى مصر أم سينفصلان .. وها هو يعجل بالانفصال ويترك ثمرة في أحشائها ولا يأبه لشيء .

•••

تلقى إبراهيم خطاباً من عائشة .

حبيب القلب إبراهيم .

يؤسفني أن أبلغك أنني لن أستطيع أن أعود إلى فرنسا . إن ظروف أبي الصحية والنفسية والاجتماعية تحول دون أن أتركه وحيداً . لقد منعته من العمل غير المثمر الذي كان يعمله . وقد التحقت بعمل قدمت فيه خبراتي التي اكتسبتها في مؤسستكم . وقد أجدت فعلاً ما أسند إلى من أعمال . وها هي الحياة تمضي . وقد عادت الابتسامة إلى وجه أبي وانقشعت غمامة الكآبة التي كانت تلاحقه أينما ذهب ، لذلك أستسمحك أن أتفرغ لرعاية الرجل مما يحول دون أن أعود من جديد إلى باريس .

شعر بألم شديد . أمعقول أن يختفي الوجه الجميل من حياتي . إن أي امرأة لم تحرك فيّ شيئاً مثلما حركت عائشة . إذا كان لديك جوهرة وفقدتها ، فيجب أن تسعى لاستردادها . لذلك يجب أن يقلع غداً إلى الجزائر وراء الجوهرة .

•••

استقبلته في بيت متواضع . كانت لا تزالا ترتدي بعض ملابسها التي حملتها معها . كان الوجه النضر قد ذبل من جديد . كأنها نهر تدفق الماء منه وفاض وعاد من جديد يغيض . ترددت في احتضانه، لكن لهفتها عليه كسرت طوق التردد وارتمت في أحضانه. بكت كأنما تبكي عزاً زائلاً جاء على غير موعد وذهب دون مقدمات .

قال : لم أكن أعتقد أنك قادرة على هجري .

سألته : وهل أترك والدي يقاسي يا إبراهيم ؟

قال : وهل أنا أتأخر عن إسعافه يا عائشة ؟

سكتت كأنها لا تريد أن تحمله عبئاً غير مسئول عنه .

دخل الشقة المتواضعة في الحي المتواضع . كانت رائحة الطبخ لا تزال عالقة بالمكان . ورأى شيخاً مهدماً يرقد على كنبة . صافحه ويده ترتعش من الضعف .

قال إبراهيم : أنا إبراهيم زوج عائشة .

فتر وجه الرجل عن ابتسامة . وكانت عيناه الضعيفتان لا تصدقان ما يقال له . أمعقول أن هذه البنت الفقيرة تترعرع في كنف هذه الشجرة الباسقة !! .. كان يرتكز على وسادة متهرئة فأعتدل و هو يغطي قدمه ببطانية صوفية يخفي بها عاهته .. قدمه المبتورة .

قال وهو يجلس بالقرب منه على نفس الكنبة :

– لم أصدق أن عائشة سوف تغيب هذه المدة الطويلة .

قال الرجل والدموع في عينيه :

– قلت لها إن تعود إليك .. لكنها لم ترض . أنا قدمي قريبة من القبر ، وهى المستقبل لا يزال أمامها ، لكنها رفضت أن تتركني . ماذا أفعل ليس باليد حيلة .

قال ابراهيم : أنا أجل فيها هذا الحب .. ولست متضايقاً كل ما أريده أن نعود معاً جميعاً إلى باريس .

قال الرجل مستغرباً : كيف أدخلها وأنا لم يعد لي إقامة .

قال ابراهيم : ستدخل بغرض الاستشفاء وسوف تبقى معي في الشقة .. سوف تبقى مع ابنتك يا عمي محفوظ .

شعر الرجل بالغبطة وهذا الوجيه يناديه بالعم . ونهنهت عائشة وكتمت دموعها . لم تكن تدري أن إبراهيم بهذا الكرم .

الفصل الخامس والأربعون

انتصار الحملان

خرج بسام ممتعضاً . لأول مرة ترفض الشركة عملاً من أعماله. وقف اليهودي المتعصب في مواجهته . أدرك أنه يعرض في أفلامه الكرتونية المعارك الدائرة بين العرب وإسرائيل . وكانت المعركة التي صورها هي معركة مصر مع إسرائيل على ضفاف القناة ، حيث عبر المصريون قناة السويس لأول مرة في أكتوبر . ورفعوا علمهم على الضفة الغربية للقناة . وأجتاح الجيش المصري سيناء . لقد جعل بسام المصريين في صورة الحملان ، والإسرائيليين في صورة الذئاب . وجعل الحملان تنتصر على الذئاب . وكان اعتراض اليهودي أن الحملان ضعيفة بطبعها فكيف تنتصر على الذئاب ؟ .. أجاب بسام : الفأر ضعيف بطبعه فكيف ينتصر على القط ؟ .. إن كل أفلام الفأر والقط ينتصر الفأر على القط فيها .غير أن اليهودي أجاب في مجلس الإدارة : أنا لا أوافق على ذلك الفيلم .

نهض بسام وقال : وأنا أستقيل من العمل في الشركة .

تهامس الأعضاء وحاولوا أن يثنوه عن قراره ، لكنه ترك المكان حاملاً الفيلم معه وهو يقول : لقد قلت إنني لن أعمل ولن أعمل .

***

عاد بسام إلى القصر مهموماً . وصادف أخاه إبراهيم جالساً مع أمه ، يناقشان مشكلة غياب أبيه عن الدار . ولم يشاركهما الحديث إنما جلس والهم لا يزال يجثم على أنفاسه .

قالت الأم : غاب أبوك كثيراً يا إبراهيم .. فما العمل ؟ ..

يرد إبراهيم باقتضاب : أنت تعرفين أبي .. إنه يهوى الأسفار .

– لكن ليس بهذه الدرجة تكون الهواية .

وكان إبراهيم يتأمل بسام ، ولما أكتشف أنه على درجة كبيرة من الهم .
سأله : ما لك يا بسام ؟ ..

قال ضاحكاً : لا شئ .

قال إبراهيم : أنا أؤكد أن هناك شيئاً .

أراد إبراهيم أن يتفادى المناورة ، قال :

– رفض اليوم العضو اليهودي في الشركة فيلماً عن انتصار الحملان على الذئاب .

قال إبراهيم : لا بد أن فيه رموزاً تسئ إلى اليهود .

قال بسام : طبعاً . إنه عن حرب أكتوبر .

قال إبراهيم : يا سيدي .. لا داعي لأن تضغط على جروحهم . ولينقص فيلم من الأفلام التي تؤلفها .

قال بسام : لقد قدمت استقالتي ، فأنا لا أقبل أبداً أن يرفض عمل من أعمالي .

قال إبراهيم : إذاً أقترح عليك أن تشكل شركة جديدة لإنتاج أفلامك.
قال بسام معترضاً : ومن أين المال يا أخي ؟ ..

قال إبراهيم : ألا تراجع حسابك الجاري يا بسام .

– لا .. تصلني أوراق المصرف فلا أنظر إليها .

– حاول أن تنظر .. إنها تعد بآلاف الآلاف .

– وقف مفزوعاً وهو يقول :

– كيف ؟

- إن والدك منذ زمن أمرني بتوزيع إيراد مؤسسته علينا جميعاً مع احتجاز جزء منه لنفسه . كنت أظن أنك تطلع على كشوف الحسابات أولاً بأول .

- لم يكن لدى وقت للقراءة .

- أقرأ . وأبحث لك عن دراسة جدوى للإنتاج السينمائي ، وسر على بركة الله . وإذا كنت تريد تمويلاً من جهتي فأنا على استعداد أن أشاركك .

هذه فرصة يا إبراهيم أن تخلع نعليك من تجارة السلاح وتدخل بقدميك إلى إنتاج جديد مثمر ليس فيه خشية ولا خوف ولا تردد .

تقدم منه فوقف إبراهيم ، ضمه بسام إليه وقبله في وجنتيه . والأم تدمع عيناها من فرط ما ملأ نفسها من عواطف جياشة .

الفصل السادس والأربعون

إلى اللقاء

كان بسام وجانيت يشاهدان الفيلم الجديد وقد سماه بسام الثغرة ، ذلك الذي قرر أن يكون باكورة إنتاجه في الشركة العائلية الجديدة التي أصبح مديرها الفني وإبراهيم مديرها الإداري .

جبهة الذئاب الجديدة في الصحراء المترامية قد انحسرت . وصار الحملان يسيطرون على مساحة كبيرة من أرضهم المنهوبة . يتسلل الذئاب بدباباتهم إلى البر الغربي تاركين البر الشرقي خاضعاً لجيش الحملان . طيران الذئاب يقصف إحدى المدن على الضفة الشرقية لتحطيم الروح المناوئة السائدة بين الحملان . يظهر الفزع في عيون الذئاب الحمراء وروح القتال مستمرة في قلوب الحملان حتى المدنيون يخرجون لمواجهة الذئاب المتسللة من البر الشرقي إلى البر

الغربي . تبدأ دبابات الذئاب في التسلل تحاول الالتفاف حول مدينة وتحاصرها. يتلقى الحملان الأنباء بثبات وثقة . يواجهون الذئاب بقوة وعنف ، يسود الذعر والفزع صفوف الذئاب . تبدو المدينة خالية من العسكريين المحترفين للدفاع عنها . مدرعات الذئاب تدخل المدينة . تهدم مصانع لتكرير البترول تصادفها في طريقها . تشتعل النار في كل مكان . تشعر القوات الذئبية كأنها تدخل مدينة مفتوحة ، لا مقاومة تذكر . تسير القوات بمحاذاة شاطئ البحر ، تدخل إلى وسط المدينة .حمل صغير يطلق قذيفة صاروخية على الدبابة الأولى في المقدمة فتتوقف حركة الدبابات . ويبدأ الحملان المدنيون يطلقون النار من كل فج . قوات الحملان الخاصة تظهر فجأة لتقاوم مع المدنيين . يترك الذئاب مدرعاتهم ويولون الفرار . ويدور اشتباك عنيف بين الحملان والذئاب الباقية . تتحصن الذئاب في مبنى قوات الشرطة الخاص بمدينة الحملان . ويدور بينهما اشتباك بالرصاص. ينهمر الرصاص فوق رؤوس الحملان يسقط حملان صرعى . ويرد الحملان بقوة فيسقط من الذئاب قتلى . تتسرب الذئاب من المبنى بناء على تعليمات جاءتها من قيادتها ، وينضمون إلى جحافل الذئاب الأخرى بينما ستون دبابة من دبابات الذئاب تشتعل فيها النيران . كبير الذئاب يعزل قائد الذئاب المقاتلة في الثغرة ، بينما الحملان يرفعون علمهم الأخضر على ربوة عالية ويظهر عليها بوضوح مرسوماً عليه حمل وديع بين كبشين كبيرين .

•••

قالت جانيت : رائع . إنك أصبحت أستاذاً في فن رسم الحروب ، لكنك تعطي كل وقتك يا بسام للعمل . تنسى كثيراً لواعج القلب .

سأل مستغرباً :

– ماذا تقصدين ؟

قالت جانيت بتمهل :

– لا تفكر أن يكون لك زوجة وأسرة . إنك تزحف إلى الأربعين..

قاطعها قائلاً : ما زال عمري لم يدنو من الثلاثين عاماً .

- لنفرض . لكن بمرور الزمن سوف تكبر . ألا تفكر في أن يكون لك أسرة مثل أخيك ؟

قال بسام : أخشى أن تكون فاشلة مثل زيجة أختي رشا .

- زواج رشا فشل لأنها تزوجت من رجل غريب يختلف عنها في الطباع .

قال بسام وهو يميل عليها ويلثمها في شفتيها :

- وهل إذا تزوجت من امرأة ليست من ديني ، ولها عادات وتقاليد مختلفة عن عادات أهلي وعشيرتي فلن يحدث ذلك الفشل .

ضمها إليه وهى تقول : لا .. لن يفشل . ما دامت هناك إرادة النجاح .

قال وهو يزداد ضماً إليها :

- ألسنا سعداء معاً .

قالت : قد تكون أنت سعيداً لكن سعادتي مليئة بضباب الحزن . لست متحررة لدرجة أن أقبل أن أكون عشيقة . ولا أهتم بتكوين أسرة . لاحظ أنني من ريف فرنسا ولست من حضرها .

- لكني في الحقيقة لا أجد ميلاً في نفسي أن أكون مسئولاً عن أسرة .

- إذاً أسمح لي أن أنفصل عنك .

تركته . وانسحبت من بين يديه ، وهى تقول :

- كنت أظن أنه يشرفك أن تتزوجني .. وأن نكون أسرة واحدة .

سألها بصراحة : والأولاد . ماذا سيكون دينهم . هل تقبلين أنت البروتستانتية أن يكون أولادك مسلمين ؟

- وما المانع ما دام الأولاد مقتنعين .

- لا أحد ابتداء يقتنع بدين . إنه يورث . يحيا الأولاد عليه حتى يبلغوا سن الرشد . قد يرتدون عنه . يلحدون . أو يؤمنون بدين آخر . أو يستمرون على دين آبائهم . وإذا كان الأب والأم مختلفي الدين فقد يحدث اضطراب للأطفال لا يمكن الاستهانة به . من ناحيتي لا يمكنني أن أكون مسيحياً ، وأنت لن تفكري أن تكوني مسلمة . وكل واحد فينا سوف يشجع طفله على دخول ديانته .

نظرت إليه بامتعاض وقالت : إلى اللقاء .

ولم يدر ما كانت عبارة إلى اللقاء تعني الوداع أو الانفصال ، أم تعني أنها سوف تعود إليه مرة أخرى . لكن هذه المصارحة أثلجت صدره ، فقد كان يحس أنه يخدعها طوال فترة العلاقة السابقة . والآن ظهر واضحاً كل شئ أشبه بنور الشمس بعد أن تبددت الغيوم.

الثلاثاء في الرياض ٣١ / ١٢ / ١٩٩٦

رقم الايداع : ٩٤٣٥ /٩٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977 - 241 - 241.- 1